إلى القارئ

لطالما ذكرنا بحقيقة المناعة بالنسبة للأمم وقلنا إن التطاول على أمة ما والطمع فى النيل منها يبدآن دائما بتشكيك أبنائها فى أصالتهم وتشويه مقوماتها ومسخ روحها • فالاستعمار يحتل النفوس ويسمم الأرواح ويتقنع بقناع العلم والموضوعية ليفاضل بين الحضارات قبل ان يحتل الاوطان ويدوس السيادات ويهيمن على مصير الشعوب • لذلك لا تعنى الأمم بشىء كما تعنى بالحفاظ على كيانها الروحى وصيانة شخصيتها الحضارية وتغذية أجيالها الصاعدة بروح القيم العليا التى تؤمن بها وتهتدى بهديها ، وهى قاعدة لا تشذ عنها سوى البلدان التى باعت نفسها للشيطان فآثرت السلبية والتبعية لأسباب تاريخية أو لخيانة مثقفيها ورجال الرأى عندها •

فنَحن حين ننادى بتونسة برامج التعليم تونسة جدية ونعتبر ذلك شرطا أساسيا من شروط الأصالة القومية وضمانا لمناعة هذه الأمة ودرءا لعوامل الانحلال والتفسخ والذوبان فى الغير ، لا ننساق مع العاطفة ولا يحركنا تعصب مقيت ، وإنما نؤكد ضرورة حيوية وقضية مصيرية ؛ إننا نريد ان تساهم البرامج التعليمية ـ أكثر مما هى تساهم الآن ـ فى تأصيل الشباب فى بيئته وتنشئته على محبة الوطن والاعتزاز بالانتساب إليه والاستعداد للمساهمة فى إعلاء شأنه وتطوير ثقافته وإنماء تراثه والزيادة فى إشعاعه لما فيه خير الانسانية وتقدم الحضارة •

على أن التونسة ليست انغلاقا على النفس أو تنكرا للقيم الانسانية الخالدة أو تنازلا عن المستوى الرفيع الذى بلغه الفكر البشرى فى كل مجالات المعرفة ، إنما التونسة مطلب من مطالب الاخلاص للذات والوفاء للروح وهو سعى لا تكاد تشذ عنه أمة تحترم نفسها ، والتونسة إحياء واستيحاء للماضى ورهان على المستقبل ، فهى عملية أخلاقية إنسانية لأنها تقتضى الاجتهاد والعزيمة وتنفى التواكل وتمقت التطفل ، وتساهم ـ إيجابيا ـ بالتابع فى احترام الشعوب بعضها لبعض ، لأن التقدير المتبادل والتفاهم والسلم والأخوة البشرية لا تضمنها ثقافة واحدة موحدة مفضلة تفرضها أمة قوية اقتصاديا أو علميا ، بل يساعد عليها ويهيىء أسبابها التنوع والتميز وحوار المدنيات بعضها مع بعض واستمداد بعضها من البعض ، على نحو ما ذهب إليه « فاليرى » (Valery) عندما قال : « لنستمد مما يفرق بيننا ما يثرينا جميعا » •

والدعوة للتفتح التى يتزعمها بعض المثقفين والاساتذة كلما نودى بالأصالة أو شرع فى تحقيق أسبابها لا يكون لها معنى من دون تكامل مع الشخصية القومية وحيطة من التلاشى والضياع الروحى ، والا كانت قناعا للاستعمار الثقافى وستارا للتبعية أو مغالطة لا تنطلى على كل مخلص غيور •

ألا فليتمعن رجال القلم واصحاب الرأى فى بلادنا فى هذه الحقائق وليتحملوا مسؤولياتهم حتى لا يكونوا كالأعمى أو الطفل الصغير فى مفترق الطرق •

الفكر

ألبير كامو في نظر جزائري

بقلم : الدكتور أحمد طالب الابراهيمي (*)

كانت حياة البير كامو Albert CAMUS غريبة فى أطوارها ، فقد ولد فى أسرة فقيرة وكانت والدته أمية لا تحسن القراءة ولا الكتابة ، لكن شاءت الاقدار أن يصبح أحد أساطين الأدب فى العالم ، وأتيح لعدد من آثاره أن تنقل الى خمس عشرة من اللغات . وأكثر من ذلك فقد بلغ القمة من الرفعة والشرف إذ أسندت إليه جائزة نوبل فى الأدب وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، مما لم يحصل عليه الفطاحل من أمثال أندريه مالرو (André MALRAUX) وهو الذى كان يقول عنه كامو نفسه « **انه لأستاذى دوما** » .

أجل ، ان حياة الرجل لتشكل قصة ملتوية متناقضة الاطوار ، فهو وليد الجزائر والقائل فى « الصيف » (L'Eté) « **إن الجزائر لهى وطنى حقا** » وما فتىء يتغنى بجمال بلدنا مشيدا بنقاوة سمائه وسحر شواطئه وتألق أضوائه . ومع هذا فقد بارح الجزائر فى السابعة والعشرين من عمره ، ولم يعد اليها الا لفترات متقطعة وجيزة المدى ، رغم ما حدثنا عنه من « **أجواء أوروبا الرطبة الحالكة** » . هذا الى ما كتبه فيما بعد فى « **عودة الى تيبازة** » (Retour à Tipaza) اذ يقول :

« ليس لى أن أجحد الضياء الذى ولدت فى كنفه ، بيد أننى أبيت الا تلبية مطالب زمنى بما تفرضه علي من أعباء » .

(*) الدكتور أحمد طالب الابراهيمي يضطلع الآن بمسؤولية وزارة التربية القومية بالجمهورية الجزائرية الشقيقة . والمقال نص محاضرة كان القاها بالفرنسية بقاعة ابن خلدون بعاصمة الجزائر يوم 10 فيفرى 1967 ونقلها الى مجلة الفكر الاستاذ الصادق مازيغ . ونحن نرحب بمساهمة صديقنا الدكتور أحمد طالب . ونطلب منه ومن اخواننا رجال الفكر فى الجزائر المزيد ونأمل أن نستأنف بهذه المساهمة التعاون الأدبى الذى حملت لواءه مجلة الفكر أبان الثورة الجزائرية الماجدة .

وكان تطور كامـو متسعا بوضوح مغزاه في الحقل المذهبي · لقد انخرط عضوا بالحزب الشيوعي خلال فترة الجبهة الشعبية (Front Populaire) وأمسى سنة 1944 رئيس قلم التحرير لجريدة منبثقة عن حركة المقاومة · ومما كتبه في مقاله الأول الافتتاحي بها :

« **إن هدفنا هو بعث ديمقراطية عمالية حقة** » ·

لكنه ما يلبث أن يعتزل المعمعة ويجلس على الربوة حتى اذا كانت سنة 1957 وأسندت اليه جائزة نوبل نجده مصرحا على رؤوس المـلا بأنه « **رجـل منـاهز للكهولة لا رصيد له سوى الشكوك التي تخامره والآثار التي ما فتىء يعالجها ، هذا الى أنسه الى العمل في كنف العزلة ، ولجوئه الى أحضان الود والاخاء** » ·

ونحن ان أعدنـا الى ذاكرة قارئنا اتخاذ الرجل هذين الموقفين المتعارضين فليس من غرضنا الحكم له أو عليه ، إنما همنا أن نتفهم حقيقته ونستوضـح جليته · ولئن حامت من حوله أجواء من التأويلات الخاطئة والأحاديث الملفقة ، واكتنفت ضروب من اللبس علاقات كامو بالجزائر (وهو ما يهمنا مباشرة) فنحن سنحاول ما استطعنا أن نلقى ببعض الاضواء الكاشفة سعيا منا الى استئصال كل أثر لسوء التفاهم واللبس ، مسهمين عند الاقتضاء في تحطيم بعض الأوهام والخرافات ، سواء أكان منشؤها عن نية أو عن محض الجهل ·

ولكن لزام علينا قبل أن نتفهم أي انسان أن نعمد على حد تعبير منتاني (Montaigne) إلى « **اقتفاء أثره مليـا وبمزيد الامعان** » · فلنشر بادىء ذي بدء الى المراحل الرئيسية لحياة الرجل ، تلـك التي اخترمتهـا المنية وهو في السابعة والأربعين أثناء حادث سيارة بأحد دروب فرنسا في الرابع من يناير (جانفي) سنة 1960 ·

معلـوم انـه ولد بمندوفي (Mondoovi) وقد اصبحت تدعى اليوم دريغان (Drean) بولاية عنـابة ، في نوفمبر من سنة 1913 ، وكان والده عـامـلا بمستودع للخمور في ضيعة فلاحية ، فلقى حتفه بساحة الوغى في مستهـل حرب 1914 · عندئذ قصدت والدته عاصمة الجزائر واستقـرت بحي بلكـور (Belcourt) برفقة ولديها · واشتغلت أولا بالترسخانة ، ثم انصرفت للعمـل في المنازل · ومما خطه قلم كامو فيما بعد قوله : « **لقد ترعرعت انا وعامة أبناء جيلي في جو ملؤه جلبة النفير للحرب الأولى ، وما انفك تاريخنا من يومئذ عبارة عن القتل والظلم والعنف** » (الصيف) · كمـا يقـول في « حاليـات رقم 1 » (Actuelles I) « **إنني لم أتعلم الحرية عن مـاركس** (Marx) **انمـا تعلمتهـا عن البؤس** »·(وكان متوجها بقوله هذا خاصة إلى ج·ب·سارتر J.P. SARTRE).

803

وزاول الصبي كامو تعليمه الابتدائي بمدرسة نهج أومرات (Aumerat) حيث أعانه لويس جرمان (Louis GERMAIN) أحد معلميه بهـا على متـابعة دروسه في الثانوية المعزوة اليوم الى « الاميـر عبد القادر » • ولم ينس كامو لمعلمه هذا منته الكبرى نحوه ، فما أن خول جائزة نوبل حتى وجه اليه برسالة ضمنها خالص مودته وعرفانه لما طوقه به من إحسان • وهي الرسالة التي ألقيت منذ زهاء سنـة على ضريح ذلك المعلم الذي تقدمت بـه السن ، وظل مقيما بالجزائر بعد نيلها الاستقلال •

* * *

وبدت مـلامح النبوغ على كامو خلال تردده على الليسي فلفت اليه أنظـار مدرسه في مادة الفلسفة جان قرينيه (Jean GRENIER) الذي أصبح فيمـا بعد أستـاذا له وصديقـا حميما • وكان لجان قرينيه الأثر الحاسم في توجيه كامو • فهو الذي بعث فيه موهبة الكتابة ، وعمل على اذكاء جذوتها فيه ، كما كان المرشد له ، وهو لما يتخط طور المراهقة ، في مضمار المطالعة والـدرس ، مما يتاح له في الغالب أثر لا تمحوه الأيام •

وأتيـح لكـامو في تلـك الفتـرة أن يطـالـع على الخصوص تآليف نتشـه (Nietschze) ودستويفسكي (Dostoiëwsky) وكذلك كتب مالرو (Malraux) الذي كان يومئذ قد نشر له « فتنة الغرب » (La Tentation de l'Occident) و « الغزاة » (Les Conquérants) و « الجادة الملوكية » (La Voie Royale)

وكانت سنة 1930 نهاية دراساته الثانوية ، ومنتهى المرحلة الاولى لحيـاته بالجزائر • ثم كانت الى ذلـك موعد الذكرى المئوية لغزو الجزائر ، وهي التي أقام لها الاروبيون رائع الحفلات ، لكنها كانت بالخصوص السنة التي انتابت كامو خلالها الطعنات الاولى لداء السل المستعصي برؤه يومئذ • وأغلب الظن أن تلـك الطارئة كان من أثرها إرساخ ملكة الكتـابة لدى الفتى المولع الى ذلـك التاريخ بارتياد الشواطىء والمغرى بلعب كرة القدم • وفي نفس تلك الفترة ، فترة السابعة عشرة من سنيه ، سنحت له ، بايعاز من جان قرينيه مطـالعة رواية قصصية غمرها النسيان في يومنا ، تصور حياة ولد فقد أباه • فكانت فتحا جديدا بما كشفت له من حقائق • وقد وصف لنا انطباعاته عنها فيمـا بعد ، حيث يقول : « ان فترات صمتي العنيد وآلامي الغامرة القاهرة ، وما حف بي من عالم شاذ في ملامحه ، الى ما اتسمت به أسـرتي من شمم وأنفـة في خصاصتها وبؤسها ، وبالتالي ما كنت أعتبره سرا أحتفظ به ـ كل ذلك قد

أصبح من يومئذ يســوغ لى أن أقــوله بــلا حــرج » (تكــريم لجيــد ، نشر NRF. (NRF, Hommage à Gide)

وتولى رعاية الشاب فى مرضه عم له محترف للجزارة مولع بمطالعة الكتب محب للجدل والنقاش ، وكان فلتيرى الآراء منتحلا للنزعة الفوضوية ·

وفى سنة 1932 انخرط كامو فى فصل الآداب العليا (Lettres Supérieures) وهو الذى يدعوه الطلبــة باسم « كانى » (Khagne) فى مصطلحهم · وقــد أحدث انخراطه ثورة فى وسطه العائلى حيث لم تكن تلك البيئة الشعبية لتنظر بعين الرضا من ينصرف من أبنائها الى طويل الدراسات ذات المستوى الرفيع· ومما يؤثر بهذا الصدد أن أحد أقربائه توعد برصاص بندقيته من حاول الزج بالفتى « كامو » فى زمرة « المثقفــين » · على أن محجته كانت واضحة : كان عليه أن يحرز على الاجازة ، ثم يســاهم فى منــاظرة التبــريــز لكى ينتصب لخطة التدريس ·

وتعرف كامو الى الفنانين وحملة الاقلام ، وخاصة من بينهم مــاكس بول فوشيه (Max-Pol Fouchet) ونشرت له أربع مقالات فى مجلة « الجنــوب » (Sud) بمــرسيليــا ·

حتى اذا كانت سنة 1933 انخرط بجامعة الجزائر لاعداد اجازة الفلسفة ، وكان ذلــك فى نفس التــاريــخ الذى نشــر فيــه أستــاذه جــان قــرينيــه (Jean GRENIER) مجمــوعــة خواطر بشأن الحيــاة تحت عنــوان « الجزر » (Les iles) وصادف أن كان آخر نص نشر لكامــو قبيــل وفــاته هو مقــدمة أعدها لطبعة ثانية لنفس الكتاب · وقد ورد فيها بقلمه :

« كنت زمن أتيح لى العثور على كتاب « الجزر » أروم الكتابة فيما اعتقد · وانما صممت عليها اثر مطالعتى اياه » ·

وفيما هو بصدد اعداد اجازته ، أى فيما بين سنتى 1933 و 1936 جدت أحداث هــامة ، فمن غزو مــوسولينى (Mussolini) للحبشة (اثيوبيــا) الى انتصار الجبهــة الشعبيــة (Front Populaire) بفرنســا ، الى اندلاع الحرب الأهلية باسبانيا · وكان الجو يدعو بطبيعته الى اتخاذ موقف سياسى ملتزم · وفعلا فكر كامو فى الالتحاق بحركة مناهضة للفاشية كان قد تم بعثها يومئذ عــلى يـــد هـــانــرى بــربــوس (Henri BARBUSSE) ورومـــان رولان (Romain ROLLAND) · حتى اذا كانت ســنــة 1934 انخــرط فى الحــزب

الشيوعى الذى عهد اليه بالدعاية له فى الاوساط الاسلامية · ثم التزم التزاما آخر بابرامه لعقد زواج ، لكنه لم يتجاوز مدى سنة واحدة وما لبث أن انحل..
أما انخراطه فى الحزب الشيوعى فلم يتماد أكثر من سنة فيما يرويه بعضهم ، أى الى رحلة بيار لافال (Pierre LAVAL) الى الاتحاد السيوفييتى حيث استجاب ستالين (STALINE) لرغبته ، فأصدر أوامره بالتخفيف من وطأة الدعاية الشيوعية بالمستعمرات الفرنسية · ويذهب فريق آخر الى أنه لم ينقطع عن الحزب الشيوعى الا فى سنة 1937 إثر نشوب خلافات بين الحزب الشعبى الجزائرى (P.P.A.) والحزب الشيوعى · وكيفما كان الامر فقد كان كامو فى تلك الفترة أحد المثقفين اليساريين المتطرفين ، فقد أسهم بامضائه عريضة لفائدة انجاز مشروع بلوم (BLUM) وفيوليت (VIOLETTE) باعتباره **« الحد الادنى »** من المطالب العادلة المتعين ارضاؤها لفائدة الجزائريين ، هذا على حين كان من بين الشعارات المتداولة لدى المستعمرين قولهم : « **لن يسمح أبدا لعربى أن يكون رئيس دائرة بلدية** » · وهى الكلمة التى أصبحت تتجاوب معها أو بالأحرى تعارضها على شكل مستظرف أصداء انتخاباتنا البلدية التى تم اجراؤها فى الخامس من هذا الشهر (فيفرى 1967 بعد انقضاء 30 سنة على ذلك العهد ·

كانت سنوات كامو الدراسية مليئة بالنشاط · كان يعد عدته لقضاء امتحاناته ، لكن كان عليه أيضا أن يشتغل ويكدح من أجل ما كان يعانيه من عوز وخصاصة ، وكانت القروض الشرفية غير وافية بحاجياته · فهو يعمل كمناضل ، ويقبل على التحرير · وكذلك يشرع سنة 1935 ، وهو فى الثانية والعشرين من سنيه ، فى تأليف « القفا والوجه » (L'Envers et l'Endroit)
وهو يعنى بشؤون « دار الثقافة » التى فتحت أبوابها بعاصمة الجزائر ، ويؤسس مع بعض اصدقائه « مسرح الشغل » ، ومن أجله يحرر باشتراك مع بعض الرفاق أول مسرحية له وهى « ثورة أستوريا » تمجيدا للمضربين الاسبانيين ، ولكنها تحجر بموجب قرار · ثم هو الى ذلك ينهمك طبعا فى المطالعة ، منصرفا خاصة الى مؤلفات ابيقطيطس (Epictèce) وبسكال (Pascal) وكيركغارد (Kierkegaard) ومالرو (Malraux) وجيد (Gide) · وكان لهذا الاخير الأثر البالغ فى صقل أسلوبه الانشائى · ثم هو الى ذلك يرسم كممثل فى جوقة محطة الجزائر للاذاعة ·

وبوسعنا القول ان احتراف الادب كمهنة من قبل كامو قد تقرر نهائيا سنة 1937 ، ولربما كان أوفر إقبالا على التأليف المسرحى منه على الرواية أو الدراسة المذهبية · وانما اتضحت خطته تلك اثر الفحص الطبى القانونى

الذى أجرى عليه قبل مناظرة التبريز (Agrégation) ، مما اضطره الى العدول عن اقتحامها · وكان قبل ذلك أحرز على شهادة فى الدراسات العليا تناولت موضوع اتصالات المسيحية بالثقافة اليونانية كما تتجلى من خلال كتب القديس اوغسطينوس (Saint-Augustin)وأفلطين (Plotin) ·

وكانت نفسه مـع ذلـك تحدثه من يومئذ بادراك شأوبعيد · فهو يرفض خطة تدريس بمعهد سيدى بلعباس الثانوى خشية الوقوع على حد تعبيره فى « **حماة الروتين والرسوب فى أوحـال المهنـة** » · فيعتزم تحرير دراسة عن مالرو ، ويقوم بجولة عبر إيطاليا · حتى اذا آب من رحلته انضـم الى هيـأة تحرير « الجزائر الجمهورية » (Alger-Républicain) ، وكانت هذه صحيفة تم بعثها حديثا عن طريق اكتتاب من طرف فرنسيى أحزاب اليسار وثلة من ابناء الجزائر ، وكانـوا قـد ضـاقوا ذرعـا بأكاذيب صحيفتى « ايكـو دالجـى » (Echo d'Alger) و « الـدبيش الجيـريـان » (Dépêche Algérienne) فتاقت أنفسهـم الى تصفح جـريـدة تنبئهم عن الحقيقة دون مـواربة فى كل صباح ··· وعرف كامو بفصوله بها ، وتحقيقاته البارعة فى أسلوبها والمتسمة باعتدال لهجتها ، مما كان يمنحها المزيد من الحظوة لدى القراء · وكان كاتبها يشهر بالمناكر ويفضحهـا ويتصدى للذود والنضـال عن الأبرياء من ضحايـا بعض المثلين المحليين للسلطة الفرنسية · كما أتيح له قبيل نشوب الحرب العالمية فى سنة 1939 أن يحرر تحقيقا عن ظاهرة البؤس والخصاصة ببـلاد القبائل ، وهو التحقيق الذى نقلـه بحذافيره فى « حاليـات 3 » التى نشرت له بعد مضى عشرين سنة · وبديهى أن الانتقادات التى كان يوجههـا كامـو لسياسة الحاكم العام للجزائر لم تكن لتتعرض مهما بلغ من عنفها لمبدا سيادة فرنسا · ذلك أن صحيفة « الجزائر الجمهورية » (Alger-Républicain) كانت يومئذ تناضل من أجل تحقيق سياسة الادماج التى كان يرفضها المستعمرون ، وان لم تكن ملبية رغائب السواد الاعظم من المسلمين· وقد كتبت هذه الصحيفة فى أكتوبر 1938 تقول :

« **لا يجوز أن يكون هنالك صنفان من الفرنسيين ، بل صف واحد يشمل الباريسى وليد التربة الباريسية ، والمرسيلى سليل مرسيليا ، والعربى أصيل الجزائر · ومن أجل هذا نطالب بالمساواة الاجتماعية بين جميع الفرنسيين ، كيفما كان منشؤهم أو معتقدهم أو فلسفتهم** » (وليس ثمة أية اشارة الى مساواة ما فى الحقل السياسى ·

وكذلك ينضم كامو بفضل ما نشر له من فصول وتحقيقات الى صف تلك

الاقلية من الفرنسيين التى حدت بها شجاعتهـا او نـزاهتها ابتداء من سنة 1830 ، وفى أزمنة شتى ، إلى الاصداع بكلمة الحق ، فكانت المشهرة بأعمـال التقتيل والنهب التى اتسم بها غزو الجزائر من طرف فرنسا ، وكانت المناضلة عن « الاهـالى » (Indigènes) تجـاه تصرفات الدواوين العسكـرية الغاشمة والاغتصابات الشاسعة الترابية لفائدة المعمرين ، هـذا الى ضروب الاهانات والمظالم المسلطة على أبناء الجزائر فى عديد من الظروف ·

وكانت طائفة من حملة الاقلام قد نددت ببعض مظاهر النظام الاستعمارى، ومن بين هؤلاء أندريه جيد (André GIDE) فى « رحلتـه » الى الكونغـو ، وأندريه مالرو فى أحد أعداد مجلة « كرابويو » (Crapouillot) لسنة 1935 حيث نشرت صورا لوطنيين من أبناء الهند الصينية قطعت رؤوسهم من طرف الجنود الفرنسيين · حتى مونتيرلان (Montherlant) نفسه المعتدل فى لهجته نجده يقول فى نفس السنة بكتابه « خدمة من غير جدوى » (Service inutile)

« **فى افريقيا الشمالية شاهدت العنف يمارسه القوى الأروبى على كاهـل الضعيف الأهلى** : مما جعلنى **فيما أعتقد أسأم العنف** طيلة **الحياة ، وابتـدأت احب المغلوبين** على أمرهم » ·

وبهذا الصدد أيضا نشر جان قيهينو (Jean Guéhenno) على عهد الجبهة الشعبية تحقيقـا عن الجـزائر بهذا العنوان البليغ وهو « البؤس فى رائعـة النهار » هذا الى كتاب غير هؤلاء عالجوا نفس الموضوع ·

نحن ازاء تيار فكرى برمته منبثق فى معظمه عن نزعة انسانية لا أكثر ولا أقل ، وعن فكرة الشذوذ واللا اتباعية أحيانا ، وفى النادر عما نسميه اليوم « مناهضة الاستعمار » · ولعمرى انها لحركة حرية بأن تدرس من طرفنا ، وذلك على الأقل تأدية لواجب العرفان إزاء من اتسموا بالنـزاهة والفعـالية من بين ممثليها الذين كان لهم خلف نسجوا على منوالهم ، وليس من شأننا أن ننسى ما أسدوه خاصة سنة 1945 عند مجازر ولاية قسنطينة ، أو بعد 1954 طيلة فترة كفاحناالتحريرى القومى ·

أما بخصوص كامو وبالنظر الى فصوله بصحيفة « الجزائر الجمهورية » فسوف نرى أنه لئن ناضل عن مفهوم للعدالة الاجتماعية فى دائرة نظام سيـاسى لا يضع محل النقاش وضـع الاروبيين المـوطنين بالجزائر فهو سيكـون أشـد احترازا بكثير سنة 1945 إزاء المطالب السياسية الرامية الى اقامة جمهورية

جزائرية • حتى اذا كانت سنة 1954 أصبح المناهض كل المناهضة لفكرة استقلال الجزائر •

* * *

ينبغي ان أردنا مزيد الالمام بشخصية كامو أن نعود أدراجنا الى فترة ما بين سنتي 1935 و 1940 لنتحدث عن نشاط كامو الذى سبق لنا أن أشرنا اليه • ذلك أنها فترة هامة أتيح له خلالها تحقيق عدد من تجاربه موفرا له رصيدا فكريا وفق فيما بعد الى استغلاله وانمائه فى الآثار التى أبرزها (على أن الامر ربما استدعى افاضة القول للتدليل على أن آثار كامو الأدبية وان أعوزها التماسك الذاتى الا أنها لا تخلو فيما بينها من اتصال تشكل تساؤلات الكاتب بشأن الحياة ومغزاها أحد خطوطه الرئيسية) •

لقد قلنا إن كامو شرع سنة 1935 فى إعداد كتابه « القفا والوجه » ، وهو وهو الذى يقول عنه بعد مضى عشرين سنة :

« أما أنا فأعلم أن المنهل الذى كرعت منه هو « القفا والوجه » • أما بشأن الحياة نفسها ، فلست أعلم عنها أكثر مما قلته فى « القفا والوجه » بأسلوب متضح العى » •

وان هذا التأليف الصغير الحجم ليثير انتباهنا بما يكشفه لأعيننا من ثنائية جبلية فى الرجل ، بما حواه فى قراءة نفسه من تأرجح بين الرفض والقبول ، وبين الشغف والخلو منه ، وبين ما يمليه العقل من جانب وما يهواه القلب من طرف آخر • ومعلوم أن « بين نعم ولا » هو عنوان احدى القصص الست المتكون الكتيب من مجموعها • وقد ذهب مونتيرلان الى ان ذلك التناوب بين النقيضين يشكل ظاهرة عريقة فى الجنس الاسبانى ، فلربما يكون كامو قد ورثها عن أمه • على أنه نفسه قد كتب يقول : **ان اسبانيا لهى وطنى الثانى باعتبار الدم الجارى فى عروقى •**

وفى السنة التالية ، أى سنة 1936 ، نشر له كراس بعنوان « أعراس » (Noces) • ولربما أفادت هذه التسمية مفهوم اقتران الانسان بالأرض ، مما لا يخلو من شبه بكتاب « الأغذية الأرضية » (Nourritures Terrestres) لمؤلفه جيد (Gide) • وهوعبارة عن شبه أنشودة تغنى فيها بالمتع الحسية فى ضرب من الطمأنينة الساذجة • وهو الى ذلك تمجيد واطراء لمواطنيه الاروبيين (ولا غرو فالعرب لا أثر لهم فى كتبه ، وانما يتحدث عنهم فى الصحف) • وهو القائل انه على وعى ومزيد فخر بانتمائه الى « **سلالة وليدة للشمس والبحر ،**

سلالة حية شهية المذاق ، قد اشتقت عظمتها من سذاجتهـا ، وانتصبت على الشواطىء بسامة متهللة تلبية لبسمات أجوائها الرائعة » ٠

هذا هو الوجه ان صح التعبير ٠ لكن هناك القفا ، لأن كامو المثقف لا يلبث ان ترتفع الغشاوة عن عينيه فيتضح له أنه وحيد فى خصائصه وسماته بين الأوروبيين ، كانما هو مستثنى منهم ٠ فهو يكتب بعد بضع صفحات :

« اننى لموقن أن مثل هذه الأمة لا يسيغها كل الناس ٠ فليس هنا من موطن للفطنة ٠ انها سلالة لا تبالى بالفكر ، بل ينصرف تقديسهـا واعجابهـا الى الجثمان ··· وكثيرا ما نعوا عليها « ذهنيتها » أعنى منحاها الخاص فى النظر وفى العيش ٠ ولا غرو فبعض النشاط الحيوى البالغ لا يخلو من عسف ٠ وبعد فهذه أمة لا ماضى لها ولا تقاليد ترجع اليها ، لكنها لا تخلو من روعة شعرية.. »

ويتتابع التأرجح على هذا المنوال ٠ فبعد « نعـم » و « لا » يعود بالكاتب مطافه الى « نعـم » ، فيعمد الى ابراز عطفه ازاء مواطنيه ٠ انه لم يعزب عنـه ولا شك أنهم متسمون بالظلم وقصر النظر ، وهو يقر بأنهم شحنوا « عنفـا » بيد أنهم يبدون لنظره بصورة شعب « وليد هذه الديار » ٠ وإن هذا العطف لمستلهم لديه من شعور غامض فى نفسه بوشك انتهاء ذلك الوضـع وعـدم استقراره على حال ٠ فهو يكتب فى « أعراس » بشأن الاوروبيين :

« قد يكون ميسم الشباب وميزته ما وهبه من مبادرة الى انتهاب اللذات دون حاجز دونها ··· وكذلك ندرك كيف ولد (أى العنصر الاوروبى) فى كنف هذا البلد الذى ما وهب فيه أى شىء حتى استرد فيما بعد٠ ففى أحضان هذا الخصب والثراء وبين هذه النعم المبذولة بلا حصر (وكان باستطاعة كامو أن يذكر هنا ، فى معرض مقابلة الشىء بنقيضه ، بمـا كان يتخبـط فيه الجزائريون من فادح البؤس) نجد الحياة منساقة بطبعها الى منعرج الأهواء العارمة المفاجئة الملحة فى طلباتها والطافحة بلذاتها ٠ كلا ما أعدت قط هذه الحياة للبناء والتشييد ، إنما للاحتراق ٠ وليس هنا ما يدعو الى النظر والتبصر ، ولا ما يهيب بالمـرء أن يصبح أفضل ··· »

ان هذه النزعة الغنائية لكامو فى « الأعراس » ليست بالظـاهرة المنعـزلة الوحيدة من نوعها ٠ ففى أحد أعداد « المائدة المستديرة » خصصوه لكامو اثـر وفاته نجد هذه الكلمة لجان هورقون (Jean Heurgon) صديق كامو وأستاذه القديم متحدثا فيها عن الحلقة الأدبية الصغيرة التى كان الفقيد أحد المسيرين لنشاطها ٠ يقول جان هورقون :

« ذلك أن ما اقد تكهن به ج. أوديـزيـو (G. Audisio) منذ سنة 1935 فى « شباب المتوسط » (Jeunesse de la Méditerranée) أعنى تلـك الوثبة الخلاقة المجددة فى جميع ميادين الفن كانت تهزه هو ورفاقه وتلهمه أن يصدع على رؤوس الملا بأقاويل نسوق من بينها كأنموذج هذه الكلمة بقلم كامو نفسه: « **ليس بالخفى عن أى كان أن حركة للشباب والعاطفة المشبوبة قد انبعثت على سواحلنا · ففيما بين فلورنسة وبرشلونة ، وما بين مرسيليـا والجزائر قـد هبت أمة بأسرها ، مائجة متآخية ، تملى علينا أسس سلوكنا فى الحيـاة** » ·

وقد أثبتت هذه الكلمة بعينها فى نشرية « دار الثقافة » بعاصمة الجزائر التى كان كامو المشرف على نشاطاتهـا ، وكانت النشـرية تصـدر بعنـوان « المتوسط الشاب » (Jeune Méditerranée) · ولا شك أنها لم تكن تلك أول محاولة لبعث حركة أدبية يقوم بهـا كتاب فرنسيون من مستوطنى الجزائر · بيد أن اللهجة كانت هذه المرة متسمة بطابع الطرافة ، وكان الاتجاه مغايرا لما سبق · فلقد عرفنـا مثـلا الى ذلـك العهـد مـا قـام بـه لـويس بـرتـران (Louis BERTRAND) ومجلة «افريقيا اللاطينية» (L'Afrique Latine) حيث اتجهت مساعيها نحو مواصلة السير فى القرن العشرين على آثار الرومانيين فى أوائل المسيحية · وظـل لويس برتران المنتمى الى المجمع العلمى الفرنسى ينافح بقلمه عن أسطورة « افريقيا اللاطينية » بمزيد من حماس كان أحرى أن يصرفه فى قضية أعـدل وأقرب الى الرشد · فهو الذى كتب مثـلا يقـول : « **إن افريقيا الشمالية قد انعدمت فيها وحدة الجنس البشرى ، فهى مجرد معبر وموطن نزوح على مدى الدهر · وقد أهلهـا موقعهـا الجغرافى للتأثر بمفعول الغرب اللاطينى** » ·

وكان لويس برتران قد شرع يكتب فى مستهل هذا القرن فى نفس الفترة التى انتخبت أثناءها الجالية الفرنسية بالجزائر العاصمة درومون (Drumont) نائبا عنها بمجلس الأمة الفرنسى · ودرومون هذا هو مؤلف كتـاب « فرنسا اليهودية » (La France Juive) ، كما انتخبت رئيسا للبلدية ماكس ريجيس (Max Régis) ، وهو الذى لم يكن له من برنامج لحملته الانتخابية سوى هذه الكلمة : « **ليهلك اليهود عن آخرهم** » ومعلوم أن النازيين لم يبرزوا الى الوجود الا بعد ثلاثين سنة ·

وبوسعنا أن نسرد عددا من هذه الطائفة ، نخص بالذكر من بينهم روبير راندو (Robert Randeau) فقد كتب رواية تحت عنوان « المعمـرون » يؤكد لنا فيها جادا غير هازل أن « **قاطنى هذه الديار الشديدى المراس والمنهمكين فى**

اللذات كانوا يتصورون الحياة على غير ما يتصورها الشماليون من ذوى البشرة الوردية اللون » (يعنى الفرنسيين من سكان فرنسا) • وكل رواياته عبارة فى نفس الآن عن تصوير للبيئة الاروبية من جانب ، وعن تدعيم واطراء للمذاهب القائلة بتفوق المستعمرين من جانب آخر • وتلك هى لعمرى شنشنة الاروبى المستعمر للأقاليم الجنوبية (Sudistes) على غرار ما حصل فى الولايات المتحدة ، حيث ثار أبنـاء الجنوب من الامريكـان لمناهضة تحرير الزنوج العـاملين فى ضيعـاتهـم) •

أمـا بخصوص كامو وكل المنضمين الى جانب أوديزيو فالظاهر من أمرهـم أنهـم أعرضوا جانبـا عن ذلك التيار العنصرى الجذاب (نقول العنصرى اذ لم تخلق بعد كلمة استعمارى) وعن أحلام المنتصرين لفكرة « افريقيا اللاطينية » أى المسيحية • فلم يول كامو وأتباعه وجوههم صوب روما المسيحية بل نجدهم منصرفين بأمانيهم صوب الاغريق وثقافتهم الخاضعة فى جوهرها ولبها الى قيم أصيلة تقدس الجمال وتدين بالتوازن والاعتدال • وقد أصبح البون شاسعـا بينهم وبين مواطنيهم أبناء فرنسا باعتبـار حساسيتهـم المفرطة لا بالنظر الى شحط الدار ، كما شعروا الى ذلك بتباين بينهم وبين مواطنيهم من أبناء الجالية الفرنسية نفسها • أما العرب فهم أغراب عنهم • ولربما حاولوا بموقفهم هذا تخطى الانقسامات السياسية ، مما قد يجشمهم عسير الاختيارات ، فطفقوا يشيدون بحضارة متوسطية وليدة لهذا البحر بعينه • وبالتالى فان شارلو (Charlot) صاحب دار النشـر التى كان مستقرها بزقاق شراس (Charras) كما كان يسمى آنئذ والتى كانت ملتقى تلك الطائفة القليلة من المثقفين والفنانين — ان شارلو هذا ما لبث أن أضفى عنوان « ضفاف » على المجلة التى تولى نشرها ، وهذا أ. روبليس (E. Roblès) الذى كان منتظما فى سلكهم نجده اليوم مشرفا لدى « منشورات العتبة » (Editions du Seuil) على سلسلة تدعى : «المتوسط» (Méditerranée) • وفى مجلـة « ضفـاف » المشار اليها خط كامو هذه الكلمة الواضحة فى دلالتها على تعلق همته أولا بأن يكون فنانا • فهو يقول :

« **الجمال والشعر هما الحقيقتان دون أى شئ فى حياة الانسان** » •

وكان كامو قد كتب فى « الأعراس » بشان الأروبيين فى إقبالهم على السباحة كمتعة يرتادونها ، كما يفيده التعبير المتعارف لديهم « se taper un bain »

« **ان مباريات الشباب على شواطىء المتوسط مضاهية فى روعتها الساحرة حركات لاعبى القوى بديلوس** (Délos) » •

وهو يكتب أيضا فى « الأعراس » (ص 65) :

« **إن أملا جنونيا ليساورنى بأن هؤلاء الأعلاج المتهادين فوق الشواطىء هم ربما عن غير وعى بصدد تشكيل ملامح واضحة لثقافة سوف تحظى فيها العظمة الانسانية بمعيارها اللائق بها** » .

ويلاحظ عمانويل مونيه (Emmanuel Mounier) فى أسلـوب بارع بمجلة « فكر » (1956) : **أن انتصار الاله الوثنى ديونيزوس** (Dionysos) **يتجلى دوما شبحه من وراء مصرع .....** »

ومهما كان من أمر فمن البديهى أن الشمس والبحر غير كافيين وحدهمـا لتشكيل وطن بالمعنى المتعارف لدينا . لذلك انصرفت همـة أولئـك المثقفين اليساريين الى الذود عن بعض القيم المستلهمة من تـراث يونـان وخاصة الى تأكيد رغبة عارمة ملحة فى تحقيق سعادة أرضية صـرف « **هنا وفى اللحظة الراهنة** » (ici et maintenant) . وفى موضوع الشمس والبحر ما يرمز الى هذه القيم الارضية ، ونحن نعلم مدى تفشى هذا الموضوع بعينه فى سائر ما خطه كامو . وهو عندما يكتب تحقيقه عن بلد القبائل نجده يعنون الفصل الاول منه تلقائيا : « يونان فى الأسمال » (La Grèce en haillons) .

وهكذا ففى نفس الوقت الذى تنمو فيه لدى مسلمى المغرب حركات متسمة بطابع « الشباب الجـزائرى » أو « الشباب التـونسى » نجد هذه الطائفة من الأوروبيين المناهضين للفاشية يتفانون فى بعث شبه حركة « شباب متوسطى » (Jeune Méditerranée) حيث لا شعور لديهم بشخصية جزائرية حقـة ولا حتى بانتماء خالص الى الفرنسيين .

ويذهب أ. روبليس الى أن مورصو (Meursault) وهـو اسم الشخصيـة الـرئيسيـة لـروايـة « الغـريب » شـديد الشبـه باسـم جـان ميرصـو (Jean Mersault) وهو الذى انتحله لنفسه كامو بصفته صحافيا . ومعلوم أن ميرسـو (Mersault) عبـارة عن تـركيب مـزجى لكلمتـى بحر (mer) وشمس (soleil) .

وقد كان كامو يتخذ له هذا الاسم المستعار سنة 1939 فى صحيفة « المساء الجمهـورى » (Soir Républicain) التى خلفت « الجـزائـر الجمهـوريـة » (Alger-Républicain) وكانت هذه الاخيرة قد احتجبت تحت ضغط الرقابة المنتصبة اثر اعلان الحرب فى سبتمبر 1939 . لكن سرعان مـا تحتجب هـذه الصحيفة الثانية بدورها . فما كان من كامو وهو الذى لم يقبل فى الجيش بسبب مرضه الا أن اعتزم مغادرة الجزائر العاصمة فرارا من القمع الذى كان يهدده .

وفعلا بارحها فى مارس 1940 وينخرط عندئذ فى صحيفة « باريس المساء » (Paris - Soir) حيث يمتعظ على حد تعبيره لما شعر به من « **قلب باريس برمته وذهنية الفتيات التافهات المبتذلات** » . والواقع أن هذه الجريدة قد كانت تضفى عليها « البطة المغلولة » (Le Canard Enchaîné) لقب « بؤرة العفن » (Pourrissoir) فى معرض التنكيت والجناس .

وفى شهر ماية 1940 أتم كامو تحرير رواية « الغريب » التى أجل نشرها الى سنة 1942 بايعاز من مالرو ، والتى كتب لها نجاح صاعق على حين أن كامو كان عند مبارحته مسقط رأسه الجزائر شبه النكرة فى عالم الأدب حيث لم يطبع له من تآليفه « القفا والوجه »و « أعراس » سوى بعض مئات من النسخ . بيد أنه كان يحمل يومئذ فى حقائبه نسخا غير جاهزة تماما لرواية « الغريب » التى ظهرت سنة 1942 (كما أسلفنا) و لـ « أسطورة سيزيف » (Le Mythe de Sisyphe) التى نشرت سنة 1943 ، ولمسرحية « كاليغولا » (Caligula) التى مثلت سنة 1944 .

ولما اكتسح الجيش الألمانى تراب فرنسا لجأ كامو الى مدينة ليون لكنه ما لبث أن عاد الى وهران حيث كانت تقيم زوجه ، وهنالك انخرط فى سلك التعليم . وينهى عندئذ كتابة عن « أسطورة سيزيف » ويعد رواية « الطاعون » La Peste ، وهو لا يخفى ما أفاده فى تحريره هذه الأخيرة عن رواية « موبى ديك » الشهير لميلفيل (Melville) «Moby Dick» التى يقول عنها « انها من أشد ما أبدعه الخيال اثارة فى قضية صراع الانسان ضد الشر ، بما هنالك من جدلية قاهرة تجعل المرء ينتصب خصما ألد لخلق الكون ولخالقه أصالة ، ثم يتمادى ثائرا على أمثاله الاوادم وعلى نفسه أيضا » .

ومرة أخرى يكون للمرض مفعوله فى حياة كامو اذ يمنحها وجهة غير وجهتها الاولى . قيل إنه أصابه برد بينما كان يشاطر تلاميذه اللعب بكرة القدم . فاضطر الى العودة الى فرنسا بغية التداوى . وكان من أثر نزول الحلفاء بافريقيا الشمالية فى نوفمبر 1942 أن حال بينه وبين أسرته التى بقيت بوهران ، وحتى بينه وبين الجزائر نفسها من وجه ما ، حيث لم يتح له فيما بعد أن يزورها الا فى النادر . وفى أثناء هذه الفترة كتب أحلك مسرحياته وهى « سوء التفاهم » Le Malentendu التى كتب لها أن تمثل فى باريس المحتلة بمساهمة الممثلة ماريا كازاريس (Maria Casarès) وتلتقط ضمن حوارها هذه الكلمة المأثورة : «**اياك والحكم على شيء ما ، إنك لم تحط بكل شيء علما**» . وضرب كامو يومئذ بسهمه فى حركة المقاومة ، ولا امتراء أن ذلك كان من طرفه بجمع المعلومات والمساهمة فى تحرير النشريات السرية . وما لبث أن أوفدته

حركة « كمبا » (Combat) الى باريس نائبا عنها • وعندئذ ينخرط فى دار النشر المشرف عليها قاليمار (Gallimard) بصفة أحد أعضاء هيأة المطالعة بها ، فلا يبرح هذه الخطة الى يوم يوافيه أجله المحتوم •

وبمجرد تحرير باريس عين كاموا رئيسا لقلم التحرير بجريدة « كمبا » (Combat) • وبرزت الصحيفة بهذا العنوان الضخم : « من المقاومة الى الثورة » • ثم مرت الايام وأضحت تلك النار رمادا كما يعلمه الجميع •

وطفق كامو يصور لنا بأسلوب خلاب ما نشب من معارك لتحرير باريس • فليت شعرى هل خطر على باله يومئذ أن فصوله الرئيسية كان يقرؤها ويعجب بها فى الجزائر أيضا ثلة من الاحداث بفصول الثانويات ، ممن أصبحوا بعد اثنتى عشرة سنة أولئك الطلبة الذين سوف ينحى عليهم كامو باللائمة مؤاخذا اياهم عن استعمال جبهة التحرير القومى لاساليب العنف ؟ على أنه قد كان بمقدورهم أن يقرؤوا بصحيفة « كمبا » خلال صائفة سنة 1944 أقوالا مثل هذه:

« **ان باريس تطلق نيرانها بكل ما لديها من رصاص فى ليل أغسطس • ففى كنف هذا المشهد الهائل من الحجارة والماء ، ومن حول هذا النهر المثقلة أمواجه تاريخا ، قد شوهدت من جديد متاريس الحرية منتصبة ، ومن جديد ينبغى أن تشترى العدالة بدماء البشر** » •

وقوله الاخير هذا « **ينبغى أن تشترى العدالة بدماء البشر** » مناف فى الواقع على طول الخط لما كتبه بعدئذ بـ « حاليات 3 » • والحق أن الأمر كان يخص أولا تحرير باريس ، لا تحرير الجزائر •

وهو يكتب غداة ذلك التاريخ ، أى يوم 25 أغسطس بنفس الاسلوب الشعرى الملتهب عاطفة :

« **فى أجمل ليالى أغسطس وأحرها ، تلوح سماء باريس كما هى بنجومها الخالدة على الدهر ، وقد غشيها الرصاص المشع بخطوطه ، وتصاعد بها دخان الحرائق ، وأطبقتها الشماريخ الملونة تعبيرا عن فرحة الشعب ••• أجل إنها ليلة الحقيقة الحقيقة الوحيدة الحرية بان يقام لها وزن ، حقيقة الكفاح والظفر** » •

وفى ماية 1945 ، بينما كان الحلفاء يحتفلون بالنصر ، بعد استسلام جيوش هتلر ، كان الجزائريون يبكون الآلاف من الضحايا التى اغتالها الجيش الفرنسى لا لشىء سوى أن الجزائريين أرادوا التظاهر من أجل تحرير وطنهم •

ويرتحل كامو الى الجزائر بغية القيام بتحقيق ، ويدوم هذا التحقيق ثلاثة

أسابيع • وقد تضمنت « حاليات 3 » جانبا من الفصول التى نشرت أولا بهذه المناسبة فى صحيفة « كمبا » تحت عنوان « أزمة بالجزائر » • ويتجلى لنا من البدء ابتعاد الكاتب عن اتخاذ المواقف الواضحة الجذرية ، كما كان شأنه فى ملابسات أخرى طبعا ، زمن انخراطه فى هيئة « الجزائر الجمهورية » • ففيما بين سنتى 1939 و 1945 ثارت الحرب العالمية الثانية التى زعزعت أوروبا وأيقظت عددا من الشعوب الرازحة تحت نير الاستعمار • ويمعن كامو فى البحث عن حل وسط ، كما لو كانت الحقيقة ضرورة فى الوسط فيكتب لنا (ص 93) :

« **علينا ازاء ما تضطرب به افريقيا الشمالية فى يومنا من الاحداث أن نتحاشى موقفين متطرفين ، أولهما أن نحشر فى عدد المآسى ما لا يعدو أن يكون مدعاة الى القلق ، وثانيهما أن نتعامى عن جهم المصاعب التى تجتازها الجزائر اليوم** » •

وهو يقدم لنا فى لهجة لا تخلو من عطف برنامج « أحباء البيان » (Les Amis du Manifeste) مع ابداء أسفه فى غير ما لبس لما كان من اضاعة الفرص السانحة لانجاز سياسة الادماج • على أنه معترف الى ذلك بأن هذه السياسة الادماجية ما فتئت تلاقى شديد المناهضة من طرف المعمرين ، وأن « الرأى العربى » (كما يسميه) هو فى معظمه إما عديم الرغبة فى تطبيقها وإما معارض لها • ويختتم كامو تحقيقه بقوله متوجها الى مواطنيه : « **علينا أن نقتنع حق الاقتناع بأننا لن نحقق سلامة أى شىء لفرنسا بافريقيا الشمالية دون أن نحقق للعدالة سلامتها** » •

وفى سنة 1947 ينتثر عقد جماعة « كمبا » (ان روح المقاومة وأخوة المعارك لا يضمن لهما البقاء دوما) وعندئذ يتخلى كامو عن تسيير الصحيفة لكلود بورديه (Claude Bourdet) • ويقول بعضهم بهذا الصدد ان مبارحته لجريدة « كمبا » كان معناه اعتزالا من طرفه فى نفس الوقت للنضال السياسى •

(يتبع)

غدير الضفادع

قصة ، بقلم : الطاهر قيقة

كان « الفكرون » (١) يهرول حول الغدير كزورق مقلوب تدافعه الامواج ، يمد عنقه حينا كأنه يترقب طارقا ويثنيه حينا ليتفرس فى الارض كأنه يبحث عن ضالة ٠

قد اطردته زوجته الضفدعة الخضراء الجميلة من مخدعها منذ يوم وليلة ، ومنذ يوم وليلة لم يذق طعاما ولم يشرب شرابا ، وهو يقول لنفسه : تزوجتنى وكانت هى الراغبة ، ونبذتنى اليوم بعد طول المعاشرة٠٠٠ ولا ادرى لماذا٠٠٠

وأطل اليوم الثانى على الغدير وانحدرت نسيمة من الربى الزرقاء المحيطة به فداعبت صفحة منه بدأت تلامسها أشعة الفجر اللينة الندية ٠

لقد طاف بالغدير جانبا من النهار وطول الليل آملا أن يراها ، ولكن بقى الغدير صامتا مملوءا ظلاما منذ ألقى بالفكرون أمس على جانبه طريدا منبوذا ٠

لم يفهم ما جرى له ٠ يعيد نفس السؤال منذ يوم وليلة :

ـ« لماذا أطردتنى بغتة فى فجر يوم من الايام ؟ تزوجتنى عن رضا واسكنتنى بيتها ٠ وكنت معجبا بنشاطها وخفتها وسرورها الدائم وغنائها الرخيم المتواصل ٠ وكنت أديم اليها النظر واصلى على رسول الله وأحمد الله على نعمته ٠ وكانت لنا أيام وليال ٠ ولم يبد منها نحوى أى جفاء حتى نزلت الكارثة أمس فجرا فوجدت نفسى طريحا على الارض اليابسة » ٠

وتمايلت الاعشاب على الغدير كأنها أهداب عين تفتحت باحثة عن الضياء ٠ ووقف الفكرون وغرس سيقانه فى الارض ومد عنقه ينظر الى وسط الغدير عله يراها أو يرى من يراها ولكن الغدير كان ظلاما ٠

---

(١) الفكرون : اسم مذكر يطلق فى المغرب العربى على الغيلم ذكر السلحفاة ٠ أصل الكلمة بربرية ٠

وفجأة سمع نقيقا يصاعد فيعلو شيئا فشيئا · كانت اصوات جميعهن تتلاحم وتتحد فينبعث نغم موحد فيه عمق وكثافة وفيه زخرف وتلوين وفيه حنين وشوق وتوق وابتهال · فكأنها تحيتهن لليوم الجديد وكأنها استرجاع للامل بعد سخط ويأس وقنوط ·

وكان يميز من بين الاصوات صوتا هو صوتها ، منه تنبعث جميعها رقرقة مياه وزخارف ووشيا واليه تعود لينة كسيرة فتبعث فيه قوة مجددة فيعلوها ويمتد امواجا زاخرة تروم عنان السماء ·

واهتز « الفكرون » طربا وقوس ظهره ومد سيقانه وضرب بها الارض باحثا عن الايقاع وحرك رأسه منتشيا بالنغم · وأحس بأنه خف على الارض وزنه وتمنى لو نبت له جناحان فطار ·

وانقلب النشيد لحنا خفيفا راقصا ساخرا كأنه الضحكة · وانتفض الفكرون وانفتحت عيناه وادرك انهن يهزأن به تحت سطح الماء ·

لا · لن ينفتح الغدير له · لقد انغلق على ما فيه ولفظه الى الساحل ·

وحزن « الفكرون » ودس رأسه بين كتفيه وسكن ·

* * *

وقدم الديك مزهوا يحرك عرفه القاني وانتصب ورفع رأسه مسددا نظره الى عمود الفجر وحياه بصيحة مدوية اسكتت ضفادع الغدير · ثم قال فى لهجة حازمة :

ـ « يا ضفدعة العنى الشيطان وأقلعى عن غيك وعودى الى زوجك · فهو بعلك وعماد بيتك » ·

قالت الضفدعة الخضراء الجميلة :

ـ « من يزعجنا هذا الازعاج فى فجر هذا اليوم فيبعث الوجل فى قلوب صبيتنا ؟ هو الديك ··· الا تستحى يا نقار الدجاج ؟ تسمع من اذن واحدة وتنتصب حكما تنهى وتأمر · كف عن ادعائك وصلفك وانظر الى ابنائك المبعثرين فى كل المزابل » ·

فغضب الديك وصفق بجناحيه ثم انصرف ·

* * *

واخرج «الفكرون» رأسه من مخبئه وطأطأه وجالت فى نفسه خواطر :

ـ « ماذا صنعت حتى أجازى هذا الجزاء ؟ رضيت بالضفدعة زوجة لى فنزلت منزلا غير منزلى واستوطنت موطنا غير موطنى وانقلبت حيوانا مائيا أحاول السباحة بعد أن كانت الارض لى مستقرا ومرتعا ٠ وكانت تكبرنى وتحظينى وتأتينى بأشهى الحشرات تقتنيها لى فآكلها وهى تنظر الى فى عطف وحنان ٠ وكانت لا ترضى ان تسخر الضفادع من حركاتى فتنهرها وتبعدها عنى ٠

هل عمل الزمان عمله ففطنت يوما انها لا تستطيع العيش مع زوج لا يحسن السباحة ؟ » ٠

* * *

واقبل الثعلب منزلقا على الارض متسللا بين الاعشاب يسترق النظر والسمع حتى وصل الى الغدير ٠ فغمس فمه فى الماء ودفع برأسه دفعة واحدة فتكونت فى الغدير تجاعيد أخذت تبتعد شيئا فشيئا ٠ وأخرج رأسه وحركه فنزلت من ارنبته قطرات ٠ وتكلم همسا فقال :

ـ « ضفدعتى الحبيبة ! ماذا صنع بك حتى اطردته هكذا دون رجعة ؟ لقد ملأ « الفكرون » قلبى غما ٠ يطوف دون انقطاع حول الغدير منذ يوم وليلة ٠ لو لم يكن أبكم لفزع لصياحه جميع حيوان الغاب ٠ ارحميه ٠ ألم تتزوجيه عن رضا وطواعية ؟ » ٠

فأجابته الضفدعة الخضراء الجميلة كذلك همسا فقالت :

ـ « يا عمى الثعلب ! تريد أن تستهوينى بمعسول كلامك ؟ نعم ٠ تزوجته طائعة ولم يرغمنى أحد ٠ واليوم ابعده عنى طائعة ولتحى الحرية ! » ٠

قال لها :

ـ « اعطفى عليه ٠ أتذكرين يوم أرسلتنا اليه خاطبين فامتنع معتذرا بكبر سنه ٠ كان يقول لنا : لقد اشرفت على الثمانين فثقلت حركاتى وقصر بصرى فكيف لى بشابة نشيطة ! وكنا نقول له : لا تكن جزوعا ٠ انها فيك راغبة ٠ رأتك دون ان تراها وتتبعت حركاتك أياما عديدة واشتهت أن تكون سندا لها فى الحياة وبعلا ٠ وسقناه اليك ٠ وكان يسير متعثرا فى مشيته خجلان يود لو ابتلعته الارض ٠ واستقبلته ورحبت به ٠ وتعالت اصوات الضفادع مبتهجة بالعروس وغصتن به ٠ ولم نسمع عنكما خبرا مدة سنين ٠ فظنناها السعادة ٠ وفى يوم امس رأينا « الفكرون » يطوف مهتزا فى مشيته مضطربا فى

حركاته • لا اكاد افهم ما جرى وليس لما جرى مبرر • أليس هذا من كيدكن ان كيدكن عظيم » •

قالت الضفدعة الخضراء الجميلة :

ـ « اخرس يا خناق الدجاج • بانت مراوغتك واتضح تحاملك • لست اهلا للوساطة • هل سمعت كلاب الصيد تنبح ؟ انها آتية لا ريب • عثرت على اثرك • اذهب • اجر • واغمس رأسك فى غارك وعفره فى التراب • اذهب دون عودة » •

وأحس الثعلب برعدة فقفز فى الهواء قفزة ثم انطلق ماسحا آثاره بذيله •

* * *

وقال « الفكرون » لنفسه لما رأى الثعلب يفر فزعا :

ـ « ما ابهاها وما اذكاها ! لم يخدعها بزوره ومعسول كلامه • حبيبة قلبى ! ماذا جنيت حتى اعامل هكذا ؟ هل أسأت اليك يوما عن غير قصد فكظمت غيظك حتى استفحل الداء بكتمانه ؟

أنزلتنى بيتك المربع فى قعر الغدير وتراقصت الضفادع حول جدرانه السائلة مرحا وترحابا • فكنت اراهن ينزلن ويصعدن حول الحمى يحركن سيقانهن الاربع سابحات وهن تارة متآلفات وتارة متنافرات • وكانت الاعشاب المائية الخضراء تتلوى حولها متبعة حركاتها • وكانت تندلع من حين لآخر فى قعر الغدير زهور زرقاء لماعة او حمراء داكنة وتنساب صاعدة تجر سيقانها كانها النجوم الزاهرة او الشموس الوهاجة فتبهرنا وهى مارة ببيتنا ثم تنفجر متفتحة على سطح الغدير •

وطاف بى ابناؤك من الزوج الاول وقفزوا على ظهرى واخذوا يرقصون • فلم أجسر يوم الزفاف على ردعهم لانى كنت خجلان ولانى ما لاحظت منك أى بادرة لنهيهم • ثم تمادى الصبية فى القفز على ظهرى والرقص فوق ترسى • فغضبت يوما وانتفضت فسقطوا وابتعدوا عنى فزعين • فتأثرت وقلت لى ان أباهم الفقيد كان يحملهم على ظهره ويلاعبهم • ونهيتهم فما عادوا الى صنيعهم•

هل بقى فى النفس شىء لم يمح على مر الايام ؟ ولكن هل ترضين بزوج يضيع وقاره حتى يصبح لعبة بين ايدى الصبيان ؟ » •

* * *

واتى الحمار يمشى مشية الاعيان فى ترنح ووقار ٠ وينظر يمينا وشمالا الى الربى المحيطة بالغدير والى الاشجار المتمايلة على سفحها كانت تهب عليها ريح رخاء والى نتف الضباب الابيض الممزق تنساب فى السماء فيتبعها ظلها متسلقا الربى او ملامسا سطح الغدير ٠

وكان النحل والذباب يثور من العشب واكمام الزهور اسرابا قاصدة خياشيمه وعينيه وداخل اذنيه ٠ وكان الحمار يدفع رأسه بعنف حتى يرد غائلتها فتبتعد عنه مذعورة فى صيحة عالية منغمة كانها شرار اندلع من قبس٠

وكان الحمار يقف احيانا وينحنى برأسه ويمد لسانه ويلف به ملء فمه من العشب ويدسه ويواصل السير ٠ لكان الحمار قد غادر الزريبة ومضى يتنزه ٠ كان ذلك باديا فى مسالكه الملتوية ومشيته البطيئة ٠ ولكن ها هو يقترب من الغدير ويقف عنده ويتماسك بعد ان كان مسترخيا ويحرك أذنيه بعنف فتصفق كلاتاهما على الاخرى فيسمع منهما صوت كانه خبط على طبل لم يسخن جلده وقال :

ـ « ايتها الضفدعة ! هجرت زوجك ٠ وهذا عمل لا يرضاه الله ولا عباده ولا حيوانه ولا جماده ٠ يحق للذكور ان يهجروا الاناث اما العكس فلا ٠ لان الانثى ضاعت اذا فقدت الذكر ٠ ما اللبؤة بدون أسد وما الدجاجة بدون ديك وما القردة بدون قرد ؟ مضيعة وخسارة ٠ لقد حنكتنى التجارب وخبرت صروف الدهر ٠ فاتبعى نصيحتى واعيديه الى بيتك حتى يلم شعثك ويكون لك درعا ٠

هو ذا قابع قريبا من الماء ينتظر منك الصفح ٠ العنى الشيطان ! » ٠

قالت الضفدعة الخضراء الجميلة :

ـ « وتوسل أيضا بالحمار ! ما اضيعه !٠٠٠ من اين نزلت عليك الحكمة ، يا حمار ؟ وأى التجارب نفعتك فصلح عيشك بها يا حمار ؟ شاهدتك مقبلا منذ حين متثاقل الخطى تستنشق الهواء ملتذا بحرية اخذتها اليوم اختلاسا ٠ ألم تفك قيدك ؟ ألم تخرج من الزريبة لتقبل علينا ؟ رأيتك تأكل العشب المبلل بالندى فى لذة وتلمظ شفاه لان صاحبك لا يدعك ترعى فى المروج ٠ حياتك نقل الماء والحطب وجرش الشعير فى مخلاة تغمس فيها رأسك فتضيق بها انفاسك ٠ هل عرفت يوما متعة الزواج وانت اذا فككت عقالك وانفلت فى البرية لاحقت جميع الاتن لا يهمك اى اتان تواقع ؟ انصرف لطف الله بك » ٠

واكب الحمار برأسه وبأذنيه وانصرف يجر سيقانه .

* * *

وقال الفكرون لنفسه :

ـ « ما اشد بغضها واحتقارها ! اكتشفت اسرارا واشرفت على اغوار مـا كانت لى فى الحسبان ! عشت معها سنين عديدة ولم افطن باحتقارها لانى كنت منهمكا فى ارضائها جاهدا فى ازالة الغرابة عن هيئتى وسلوكى حريصا على ان اكون فى حركاتى وسكناتى ضفدعا من بين الضفادع . وكان احتقارها لى يسرى كالنهر الخفى يشق طريقه فى انفاق بعيدة الغور تضخمـه الـروافد . احتقرتنى وفركتنى وما كنت واعيا . فما الذى دعاها الى هذا ؟ ما هى الشرارة التى اضرمت النار الدفينة ؟

هل بدر منى دون قصد ما فيه نيل من حبها الاول ؟ نعم . لم اكن اول من احبت . كانت تحدثنى عن زوجها الاول الضفدع الذى داسه البعير وتذكـر خصاله . كان سباحا مغوارا تهابه الضفادع جميعها ويأتى بالرزق . وكنت ـ عندما تحدثنى عنه ـ أجاريها فأتخيل بدورى الفقيد واعثر له على خصـال ما عثرت هى عليها لما كان بقيد الحياة حتى اصبحت ملما بصورته اكثر منها .

هل قارنت بيننا فتقلصت صورتى وذبل وجودى واحلت مكـانى صـورة الفقيد ؟ » .

* * *

واتى الثعبان ينساب بين الخمائل والاعشاب حتى انتهى الى الغدير فانتصب رافعا اعلى بدنه محركا ذنبه يضرب به الارض وحدق فى الفضاء وسدد منقاره ونفخ اوداجه وصفر صفيرا خافتا متواصلا منغما فتجمد الغدير وسكن وابدى سطحا كانه صفيحة من فولاذ .

قال الثعبان :

ـ « ضفدعتى ! ضفدعتى ! يا شهية الملمس والمذاق . تعلمين ان « الفكرون » ابن عمى لحا منذ بدء الخليقة ؟ خلقنا من نفس الطينة وانبثقنا من نفس الارومة وفصلتنا صروف الدهور المتعاقبة . ونهج كلانا منهاجه . وبقيت ـ مع ذلك ـ اعطف عليه واتتبع خطاه . وغاظنى ما دهاه . فاقبلت لنصرته » .

فصاحت الضفادع جميعها :

ـ « مولانا ! مولانا ! نحن فى حماك ! نحن فى حماك ! » ٠

قال الثعبان :

ـ « صه ! صه ! لم لا اسمع صوتها ٠ هى التى اطردته ٠ انه لافك مبين وبتر للعهد والميثاق ٠ لقد عرفت منكن اجيالا متوالية واكلت جدودكن وجدود جدودكن » ٠

فصاحت الضفادع جميعها :

ـ « مولانا ! مولانا ! نحن اهل ذمتك ٠ قطعنـا عليك عهـدا ٠ فلا تكن له ناقضًا » ٠

قال الثعبان :

ـ « انتن المتمردات وللعهد ناقضات ٠ وهى التى دفعت بكن الى ذلك ٠

قلدتموها امركن ولم تكن خيركن ٠ نعم ٠ كانت لا تلتفت اليها الانظار وهى فى عصمة زوج غليظ مغوار داسه يوما بعير او حمار ٠ لا ادرى ٠ وامست ارملة ٠ فعلقت « الفكرون » وارادت ان يكون لها زوجا ٠ فرفضتن وقلتن : ما ابعد « الفكرون » عنا ! هل تتآلف الاجناس المتضادة ؟ الارض موطنه وموطننا الماء وهو ثقيل ونحن خفيفات وهو ابكم ونحن ناطقات ٠ فألحت عليكن وزينت لكن الامر فرضيتن بالزواج مكرهات ٠ وكان زواجها بداية لنفوذها فيكن ٠ واندهشنا جميعا لهذا الحدث ٠ وانقسمت الحيوانات شيعا وقبائل منها المؤيد ومنها الساخط ٠

اما انا فقد قلت فى نفسى : عل هذا الغدير يهيىء لنا فى اعماقه بفضل هذا الزواج الفريد عهدا جديدا للخليقة فيه تتآلف الاجناس وتتلاحم ٠

واصبح الغدير فى نظرى من يومها مزارا مصونا اطوف حوله دون ان امسكن بضر ٠ واصبحت أعف عن كل حيوان مائى واقنع بالعصافير والبيض ٠ وكان همى الاسمى الذود عن الغدير حتى لا يعكر صفوه احد ٠ ولكن خيبتن املى بهذا الصنيع » ٠

قالت الضفادع :

ـ « مولانا ! مولانا ! نحن اماؤك ٠ فلا تأخذنا بجريرة احدى بناتنا » ٠

وقالت الضفدعة الخضراء الجميلة :

ـ « مولاي ! لا تبعث الفزع في قلوب اخياتي ما دمت انا الآثمة • خيب « الفكرون » أملي فأطردته • نعم • أطردته ولن افتح له ابدا فراشي • ما كان يهمني تقدمه في السن ولا بطء حركاته ولا اعوجاج سيقانه • كنت معجبة بعنقه الطويل ورأسه الملولب المستدير وشدته في السير•فكنت اقول لنفسي : ان هذا الذي يحمل بيته فوق ظهره طول حياته دون ملل ولا ضجر لا يكون الا فحلا •

نعم • عندما اصطفيته من بين الحيوانات كنت ابحث عن الفحولة لاصلاح حالي وحال عشيرتي • نحن قوم تسيرنا الاناث منا ولا سبيل الى اصلاح حالنا الا بانزال الذكور منزلتهم وبث الروح فيهم • وكنت آمل ان يكون « الفكرون » هو ذلك الفحل الذي ننتظره لايقاظ همم ذكورنا وصقل نفوسهم » •

قالت الضفادع :

ـ « أهذا الذي كنت تنتظرين منه اصلاحنا ؟ انظري اليه وهو ملقى في العشب مخف رأسه ، مقوس ظهره • كنت غرة • يرتعد فيهتز ترسه • لقد افتضح امره • انه لا يعدل ذكورنا • كيف ابدلت زوجك الاول الضفدع المغوار بهذا ؟ » •

قالت الضفدعة الخضراء الجميلة :

ـ « نعم • كان زوجي الاول ذكرا مقداما مغوارا يفوز في كل معركة وينطلق كالسهم على الحشرات ولكن لم يكن فحلا • تتعجبن من ذلك وما زلتن تتساءلن لماذا اتخذت له بديلا من غير جنسه •

نعم لم يكن فحلا لانه كان يعتقد ان الفحولة تنحصر في مواقعة الاناث •

هل تعرفن كيف مات ؟ مات في ليلة دهماء وهو يريد ان يختلي بأنثى في العشب المجاور للغدير • ومرت دابة وداسته • لا ادرى هل داسه بعير او حمار • قلت لكن عندما حل المصاب وامسيت ايما ان بعيرا داسه بخفه لان خف البعير افضل من رجل الحمار للتذكر والذكرى • أعرف الانثى التي صاحبته ليلتها • هي انثى من بين الاناث لا يميزها شيء على غيرها • وصفحت عنها لانها لم تكن لي منافسة • كانت تتحمله ولا تناوله اكثر مما يطلب منها • وكتمت السر وكتمت •

وتاقت نفسى الى ازالة الادران التى علقت بها · وتطهير اوضاع قومى وصقل اذهانهم ·

فبحثت عن ابعد مخلوقات الله عنا شكلا وصفات عله ينسينا عهدا مضى وانقضى · فعثرت على « الفكرون » واتخذته لى زوجا » ·

قال الثعبان :

ـ «ادركت الآن ما جرى · كنت تبحثين عن ملك · لو طلبت منى النصح لقلت لك ان « الفكرون » لا يحسن تسيير العشائر لانه مفكر رصين منطو على نفسه يميل الى العزلة ويؤمن بالقيم الفردية · اما انا فانى قادر على تسيير شؤونكن والحكم بالعدل بينكن » ·

قالت الضفدعة الخضراء الجميلة :

ـ « لا · ما بحثت الضفادع قط عن ملك · انه حديث خرافة واراجيف ينقلها الناس وبهتان مبين ·

كيف نخضع لقانون مسطر وسنة مفروضة ، وكل ضفدعة تنفرد عن سواها فى مزاجها وسلوكها ؟ هل تعلم ان لكل واحدة منا لونا فى السباحة تختص به ونبرات وايقاعات فريدة اذا صوتت واسلوبا تتميز به على غيرها فى ترصد الحشرات واقتناصها ؟

لو ملكناك رقابنا لحاولت توحيدنا ونحن لا نوحد · ليس الغرض ان نكون على رأى واحد ولا ان توحد نظرتنا الى الحياة بل غايتنا تغيير ما بانفسنا حتى يجعل الله من قفزنا وتنافرنا تفاهما وائتلافا · ولا يكون ذلك الا باحلال الفحولة محلها فينا · وتعلقت همتى « بالفكرون » ولكن يا خيبة المسعى ! » ·

قال الثعبان :

ـ « ضفدعتى ! ضفدعتى ! يا شهية الملمس والمذاق · اكتشفت سر نفوذك فى عشيرتك · ما قدمنك لجمالك وفتنتك لانك لست جميلة ولا فاتنة ولكن لذكائك وطموحك وبعد نظرك · كنت تنتظرين من « الفكرون » ان يكون لذكور الضفادع قدوة واماما · ولكن هل مكنته من ذلك ؟ انه يدرك ببطء ويسير ببطء ويفقد سداد الرأى اذا أحس بالالحاح والملاحقة · ألم تدفعى به فى كل اتجاه ؟ ألم تحاولى ادخال الخفة والقفز على حركاته ؟ فرضت عليه السباحة والتنقل فى جميع المستويات ودفعته الى السير فى جميع الاتجاهات · هل هذا

معقول ؟ هو صاحب الدرب السوى والخط المستقيم. طوى ارض الله طيا وتعود باليابسة . فاغفرى له اضطرابه وبلبلته فى الماء . اعيديه اليك فلربما يصلح حاله بعد ان ذاق مر الهجر وطاف بالغدير مرعويا تائبا منيبا » .

قالت الضفدعة الخضراء الجميلة :

ـ « مولاى ! مولاى ! يا من اتوجه اليه عندما يضيق النفس ولو كنت فى زاهدا . يا من تبعث فى قلبى الفزع والشوق معا . هل تعلم كم من مرة قضيت ليالى كاملة لا يغمض لى جفن لاستمع الى حفيف بطنك يزحف برفق على الحصى ؟ هل تعلم انى كلما سمعت صفيرك فى الغاب اخرجت اعلى راسى من الماء ونظرت الى لهب عينيك ترمى به الفريسة الواجمة فأحس بقلبى يخفق ؟ احبك واخشاك . طريقى وطريقك لا يلتقيان وهذا افضل . دعنى من « الفكرون » . كنت اراه يسعى بخطى ثابتة يمد عنقا مستقيما شبيها بعنقك ورأسا ملولبا شبيها برأسك وينظر امامه كأن همه الوحيد هو شق طريقه ـ كلفه ذلك ما كلف ـ فقلت فى نفسى : هذا حيوان حازم مقدام ثابت الجأش ، فتعلقت همتى به . وما كنت اعلم يومها انى ملت اليه لانى اميل اليك .

ولما مرت الايام على زواجنا فطنت ان ما كنت اظنه جلدا ومداومة لبلوغ الغايات هو فى الواقع صبر على المكاره وخمول وسلوك للسبل المعبدة . كنت انتظر منه تجديدا فى التفكير والعمل يجبرنا على اعادة النظر فى افكارنا واعمالنا فوجدت منه مجاراة لنا ومحاولة لمحاكاتنا .

كسبنا على مر الاجيال طرقا فى السباحة تعتمد الطلاقة فى الحركات والانبعاث فى جميع الاتجاهات . فلم لا نخترع طرقا اخرى فيها تسخير لجميع القوى الكامنة مع اقتصاد فى الحركات ؟ واعتدنا ان نصطاد بعض الحشرات ونعف عن بعضها وان لا ناكل النبات فلم لا ننوع غذاءنا باكتشاف الوان جديدة من الطعام والتعود عليها ؟ وجبلنا على العيش فى الماء او قريبا من الماء على الارض الرطبة فلم لا تندفع الضفادع جيوشا زاحفة تكتشف ارض الله الواسعة بجبالها ووهادها وفيافيها ؟ كنت انتظر من « الفكرون » أن يساعدنا على تجديد اوضاعنا فوجدته يجهد نفسه لتقليدنا . ما اتيت به ليجارينا ويدارينا ويقلدنا .

عاشرنى طويلا وكان طيب السريرة دمث الاخلاق حسن المعاملة لم يجادلنى فى امر ويسعى لملاطفتى ولكن فاته انى ما كنت ابحث عن اللطف والملاطفة وحسن المعاشرة والنفس حيرى لا يقر لها قرار . فكان كلما اوغل فى الاقتراب

مثى والتعلق بى نفرته وابتعدت عنه لانه اخطأ المرمى وظل السبيل • حاولت اشعاره بحالى ولكنه لم يفهم وتوغل فى الظلال • ما قولك فى رفيق لم يقل لى لاقط ولم يعارضنى فى امر ولم يقنعنى برأى ؟ أهذا فحل يعتمد عليه فى الملمات ؟ » •

* * *

وافحم الثعبان فتولى زاحفا واندس بين الخمائل • وابتعد « الفكرون » عن الغدير وشرع فى تسلق الربوة المجاورة دافعا بعنقه وراسه الى الامام فى حركة شبيهة بحركة مطرقة الحداد تسقط على السندان • وحلق فى اعلى الجو نسر وهب النسيم فحرك الغصون والاعشاب ونمق على سطح الماء وشيا زانته ظلال السحب وظل جناحى الطير المحلق فى الفضاء •

ط • ق •

نحن والسيادة الثقافية الادبية

بقلم : عز الدين المدني

يحرج صدرى أن أثير هذه القضية ، لأنها تعد ــ فى حقيقة الأمر ــ من البطلان والزيف لو أمكن لمثقف ينتمى لأحد المعسكرين الثقافيين الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفياتى أن يطرحها على قواعد الحضارة المتوارثة ويعالجها على ضوء الواقع الحاضر اليومى ٠

ولقد ألقيت بالقلم جانبا المرار العديدة ورغبت عن طرح هذه القضية وعن معالجة جوانب منها تهم بلادنا خاصة ، وملامح من العالم الثالث عامة ، وعزفت عن ذلك تماما لا خذلانا أمام ما يسمى بالشجاعة الأدبية ، ونذالة حيالها ؛ ولا مسلطا مراقبة ذاتية على نفسى وعلى أفكارى حتى أفرز منها ما يلائم الأفكار الأخرى ، ويماشيها وأمحو على مضض ما ينشز عنها ؛ ولا خوفا من الاصطدام بالظنون المسبقة التى ما زالت راكدة فى بعض الأدمغة التى تتصف بالتفكير والتعبير ؛ ولا إحجاما أمام مسؤوليتى بوصفى كاتبا أعيش فى بلد يتوق الى التقدم فى كافة المستويات المعنوية منها والمادية ؛ وإنما مرد ذلك أنى وقفت حيران متسائلا عن قضية كان من المفروض أن تسوى ، ولا سيما قد مرت زهاء خمس عشرة سنة على الاستقلال !

وعدت إلى موضوعى مؤمنا به أعمق الايمان ، وبوجوب طرحه ، وبوضعه ــ أو بوضع جوانب منه على الأقل ــ على أسسه الحاضرة والماضية ، وبالنظر فيه ببصيرة مجردة عن كل الأهواء ٠٠٠ معتمدا فى ذلك على ملاحظات شتى جمعتها فى السنوات القليلة الماضية خلال ما عشته من الأحداث الثقافية والأدبية ، وما طالعته من مجلات وكتب صدرت فى العالم الثالث ، وعنه ، وفى أثناء اختلاطى بالأعمال الأدبية والفنية ومعاشرتى للكثير من أصحابها فى بلادنا خاصة ٠

* * *

النضال الثقافى والأدبى كالنضال السياسى سواء بسواء ٠٠٠

قبل الانغماس فى جوهر الموضوع وتحليله ، أريد أن ألفت انتباه القارىء إلى أمر أراه خطيرا جدا ، وهو النضال الثقافى والأدبى ٠

كلنا يعلم ان بعض الناس من المثقفين والاساتذة المحترمين كانوا إبان الاستقلال يهزأون بالعمل الثقافي والأدبي ، وبأصحابه ، ولا يرون فائدة في الكتابة الأدبية ، ولا في معارض الرسم ، ولا في العروض المسرحية والسينمائية ، ولا في صدور مجلتي « الندوة » و « الفكر » ٠ وكان هؤلاء الرهط لا يكتفون بهذا الرأى زيادة على استهزائهم واحتقارهم فقط ، بل كانوا ينعتون الأدب « بالدروشة » وأصحابه « بالحبال » و « بالشعوذة » بل كانوا لا يرون نجاعة إلا في عملهم التربوى أو الادارى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى ٠ أما الأدب فهو « ترف غير ضرورى » ٠٠٠

واذا ما اتفق لهؤلاء القوم أن يلتفتوا الى الأدباء ، فان ذلك كان في أغلب الاحيان من باب الاشفاق على حالهم ، فلم لا يدعونهم إذن إلى القاء الاشعار على موائدهم ، كالطفيليين !؟٠٠

والأدهى أن هؤلاء البشر لم يكونوا يعترفون بأن في البلاد أدبا وأدباء ، وانما كانوا يعرضون كل الاعراض عن ذلك ، زاعمين أن الفكر لا ينبت في هذه التربة !٠٠

ونحن إذا سعينا في تحليل هذه النفسية ، وحاولنا التوغل في تشخيص امراضها وآفاتها ، والبحث عن أصولها ومراجعها ، لا بد لنا أن نلاحظ أمرين اثنين :

1) ان أدمغة اولئك القوم مغلفة بالمفاهيم الثقافية الاستعمارية أو الأجنبية بحكم تكوينهم التربوى ، وبذلك لا تدرك هذه الادمغة أى مفهوم للحرية في مجال الثقافة وأى معنى للنسبية في هذا الباب أيضا ٠

2) أن هذه الأدمغة بحكم ذلك الغلاف الثقافي الذى يلفها بكثافته وسماكته من كل جانب غير واعية للواقع اليومى الجديد ، مواصلة في عمهها وغلسها العمل الثقافي الاستعمارى أو الأجنبي ، غير شاعرة بأية سيادة ٠

والنتيجة الحتمية لهذين الأمرين أن الثقافة تصير مفارقة (Aliénation) من جملة المفارقات التى يعانيها المثقفون غير الواعين في العالم الثالث ٠

ومما لا شك فيه أن العمل الثقافي والأدبى الذى نجم في السنوات القليلة الماضية في صورة الجد والمثابرة والترابط المتواصل قد صدع ذلك الغلاف الرهيب ، وجرد بعض الظنون والآراء الوهمية من خرافيتها ، وانطلق يدعم بعد الارساء قواعد صحيحة لسيادة ثقافية وأدبية ٠

وإذا ما ألقينا نظرة على الأدب التونسي فيما قبل قيام السيادة السياسية تبين لنا ان الكتاب التونسيين أمثال الطاهر الحداد وأبو القاسم الشابي وعلى الدوعاجي كانوا لا يؤكدون فقط أنهم ينتمون لتراث حضاري عربي إسلامي ، ولا يثبتون من خلال ذلك فحسب وجود الشخصية الوطنية ، بفضل كتاباتهم ، بل كانوا أيضا وخصوصا يساندون السيادة الثقافية والأدبية التي نالها الانحطاط في أركانها ، ويحافظون عليها من شر الانجراف الثقافي الاستعماري، ويذودون عنها بالانتاج • وفي تلك المساندة وهذا الصون والذود نضال ثقافي وأدبي باسل يستحق كل تقدير وإشادة ؛ إذ أن كل حرف من حروفهم كان قبسا مفتكا من مشعل الحرية الخالد •

فالطاهر الحداد رغم ما قيل فيه من الاقاويل ، ورغم ما نعت به من النعوت ، وأبو القاسم الشابي رغم صغر سنه ورغم رومنسيته ، وعلى الدوعاجي رغم ما اتصف به من الضياع في المقاهي ، وتناول الحشيش والمخدرات والمسكرات ، كانوا جميعا مناضلين (بالمعنى السياسي) لا يقلون قيمة ولا باعا ولا أثرا عن الزعماء السياسيين والقادة النقابيين •

ذلك أن النضال في مفهومه الصحيح حسب اعتقادنا ليس كما يتبادر إلى اذهان بعض من الناس : التظاهر على الطغاة في الشوارع ، والصعود إلى الجبال ، وحمل السلاح ، والمشاركة في حرب العصابات ؛ وإنما النضال جبهات شتى وميادين متنوعة وإن النضال الفلسطيني اليوم ليعطينا صورة واضحة عما نقول : فياسر عرفات على الجبهة خارج فلسطين يقاوم الدخيل الصهيوني المحتل ، ومحمود درويش يعيش داخل خطوط النار يقاوم بشعره العربي السرطان الثقافي الاسرائيلي ، ويؤكد بذلك أنه سيد في بلاده ، رغم الطغيان والقمع ، ويثبت بذلك أيضا أنه يناضل بحرفه في سبيل استرجاع حريته المغتصبة !

فهل نقول إذن : إن نضال ياسر عرفات أرفع من نضال محمود درويش ، لان الأول يحمل السلاح ، ولان الثاني لا يحمل في جمازته إلا قصائد ؟ ؟

فمن البديهي : إن كلا منهما يحمل سلاحا ، وإن كلا منهما يناضل بأداة لا تعوض الأولى الثانية ولا الثانية الأولى • لانهما ضروريتان في معركة المصير الفلسطيني الفاصلة •

أعود إلى الموضوع فأقول : إن الغلاف الثقافي الاستعماري الذي يقيد التفكير عند بعض المثقفين عندنا هو أصل الداء العضال وهو السبب الرئيسي في الخلط المتعفن بين المفاهيم بله القيم •

وهل يدرك هؤلاء ان السياسة لا تقوم لها قائمة إلا بالثقافة الواعية · وإن السياسة بمفردها لا يمكنها البتة ان ترسى قواعد السيادة فى البلاد وبلاد العالم الثالث بالخصوص ، بما فى كلمة سيادة من قوة معنى !

وانى لأتساءل عند هذا الحد من التحليل فأقول : كيف لهؤلاء البشر المغلفة أدمغتهم ان يدركوا معنى السيادة الثقافية والأدبية ، بينما هم :

1) فى حل من الواقع الجديد اى غير واعين له وبالتالى يعيشون فى مفارقة تامة عن الحقائق الاجتماعية المتفجرة يوميا وعن ضروريات هذه الحقائق وحاجياتها المتزايدة ؟

2) يعيشون على مقاييس ومفاهيم وقيم ثقافية وأدبية ما زالوا يعتبرونها المثال والمنوال والقالب بالنسبة لكل عمل ثقافى وأدبى ، بينما يمكن تاريخ مقاييسهم ومفاهيمهم وقيمهم وارجاعها إلى أصولها فى الحضارة الغربية مثلا ؟

3) لا يدركون اى معنى للحرية فى المجال الثقافى والأدبى والحرية فى هذا المفهوم تعنى التجاوز وبالخصوص تجاوز التفكير الفردى إلى ربط الاتصال بالتفكير الاجتماعى ؟

وخلاصة القول ان هؤلاء يعيشون فى الكهوف الافلاطونية الظلماء · فكيف لهم أن يبصروا الدنيا فى قوة انفجار النهار ؟ وبتعبير آخر : كيف لهم أن يتصوروا الحرية فى حين انهم قضوا أغلب أعمارهم فى مخافة الاستعمار ؟

* * *

وإذا ما ألقينا نظرة أخرى على قضية السيادة الثقافية والأدبية فيمابعد استقلال الأقطار المتخلفة ، ولا سيما بعد مؤتمر باندونڤ حيث أعربت بلدان العالم الثالث عن رغائبها الملحة فى تكوين سيادة ، واسترجاع كرامة ، والدخول فى معارك التقدم ، نلاحظ الأمور الحاصلة من جراء الاوضاع الاستعمارية تزيد تشعبا يوما بعد يوما ، ولا سيما فى خصوص العلائق المباشرة بين السياسة والثقافة والأدب والفن ·

وهذه الأمور العويصة المتشعبة راجعة إلى الانتفاضات ، والثورات ، والآمال الجامحة فى الحرية والعدالة الاجتماعية ، وبروز الشخصية الحضارية من تحت الانقاض ·

والمعلوم أن هذه المنعرجات التاريخية التى تعيشها البلدان المتخلفة تؤثر فى قيمها ، ولعلها تحدث خلطا بينها شديدا ملتبسا حتى لا يتسنى للمفكر أن يحلل أكثرها ومعظمها إلا بعد وقت طويل ٠

ونحن سنقتصر على تحليل أحوال ثلاث ، اختلطت فيها السياسة بالثقافة إلى درجة اللبس ، وتشعبت فى طواياها الايديولوجات السياسية والاقتصادية وامتزجت بالادب والفن وحتى العلوم الصحيحة إلى حد لا بعده حد ولا فك ٠

أولا : ان المثقف وعمله لا يحظيان باحترام الناس ، ولا بتقدير « النخبة الحاكمة » ٠ ففى هذا المعنى ، يتساءل بعض المسؤولين عن جدوى الثقافة والأدب والفن ، فلا يجيبون ٠ واذا أجابوا جزموا بأن العمل الثقافى والأدبى والفنى من الاعمال المجانية بالنسبة لمجتمعات العالم الثالث ٠ ويقول كثير منهم مدعما رأيه : هذه المجتمعات فى حاجة ماسة إلى الخبز اليومى ، والسكن اللائق ، والملبس المحترم ؛ وبحكم ذلك ، تكون هذه المجتمعات ألصق بالضروريات منها إلى الكماليات ، وإن حاجياتها المادية لتؤكد ذلك ٠ وهذا هو واقعها الملموس ، ولا سبيل لنكرانه ٠

ولقد أعرب العديد من الحكام فى العالم الثالث إبان حركات التحرر والاستقلال عن هذه الآراء ، وشبيه بها ٠ لكنهم مع مرور الزمن ، وتغير الأوضاع ، وتقلب الهياكل الاجتماعية ، تفطنوا إلى احكامهم الخاطئة ، إذ أنهم حسبوا أن الاستقلال السياسى هو السيادة ، بينما ليس هو إلا بابا على استقلالات أخرى وتحررات شتى ، كما قال أحد المفكرين العمالقة فى العالم الثالث سنة 1955 ٠

ورب بلد يتمتع بالاستقلال السياسى وحتى بنوع من الاستقلال الاقتصادى، لا يعرف طعم السيادة لأنه مستعمر ثقافيا ٠ (كما نلاحظ ذلك جيدا بين أقطار الشرق الأوسط) ٠

وانتهت هذه المرحلة بالمراجعة والمحاسبة ٠ لكن العقول السياسية التى أدمنت تدبيرها على اقتطاف ثمرات النجاح العاجلة ، لا يمكنها فى رأيى أن تدرك معنى النضال الثقافى ذى المدى البعيد فى الزمن ٠ لذلك تراها تتساءل : من الأنجع ومن الأهم ومن الأنجح : أكاتب القصة أم مهندس الجسر ؟ والحال ا نالمقارنة لا تستقيم ، لان كلاهما يعمل فى ميدانه وفى سبيل بناء صرح السيادة ٠

وسواء استقامت هذه المقارنة أو لم تستقم ، فان النتيجة لدى هذا الصنف من الساسة تكون دائما لفائدة المهندس على الكاتب ماديا ، وبالخصوص معنويا ٠

وقد يتجاوز عدم الاحترام والتقدير هذا ، إلى درجة التنديد والتشهير والوعيد اذا لم تكن المطاردة من النوع « الماكارتي » الشهير قانونا ، وذلك بالخصوص في أيام المحن السياسية المستعرة حيث يكون الكاتب الحر كبش الفداء المفضل !

وإني ما زلت أتذكر ذلك المثقف النير الحر الذى هجر بلاده العربية المتخلفة ـ هروبا عبر الصحراء على الاقدام ـ تحت وقع الوعيد والمطاردة والاعتقال ٠

وإني ما زلت أسمع رنين صوت ذلك المغنى الحر الذى رمى به فى أحد سجون بلد عربى متخلف ، فمات فيه صبرا ، حتى لا يحرك بصوته الثائر شعور الشعب بالمأساة ٠ وفى صوته أنين ، ونجوى ، ونشيج لن أنساه ٠٠٠

ثانيا : إن عمل المثقف او **الكاتب** تعده **بعض** الحكومات فى **أغلب الاحيان من الابواق الدعائية** لصالحها ، وذلك رغم أنف الكاتب إذا احتج ٠ **فى حين أن هذا العمل موجه** بحكم واقعه وبطبيعته أيضا إلى **الشعب** الذى هو **فى حاجة ماسة إلى التثقيف** ، وشد أزر شخصيته ، وتركيز قيم الحرية ، **والديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية** فى نفسه ، ومحاربة الجهل والأمية **والخلط فى المفاهيم** الذهنية الصنمية الرجعية ٠٠٠

ثالثا : إن الكاتب يعيش دوما فى بعض البلاد المتخلفة تحت الوصاية السياسية الحاكمة التى جهزت له ولأمثاله شبكة محكمة التنظيم والدواليب حتى لا تفلت منها أية فكرة غير خاضعة للسلطان ٠٠٠ كأن الكاتب صبى نزق لا يعرف واجباته ولا مصالحه ولا حقوقه ولم يبلغ سن الرشد والنضج ؛ أو كأنه رجل أهبل لا يميز بين صوابه وجنونه ؛ أو كأنه امرؤ غير واع للحقائق الاجتماعية المتفجرة فى كل يوم ؛ أو كأنه لم يعش المسؤولية ولم يدر مقتضياتها ؛ أو كأنه لا يشعر بوجوب استقطاب الهمم لبناء غد أفضل لفائدة مجتمع يرزح تحت عبء ثالوث جهنمى !

والوصاية قد ظهرت منذ قديم الدهور ٠٠٠ فقد عرفها سقراط فى كأس السم الذى تجرعه عن طاعة وطيب خاطر ٠ وهى ما زالت الى اليوم بارزة بشكل أو بآخر فى بلدان العالم « الحر » يفرضها من بيدهم الحكم السياسى والاقتصادى ، ومهيمنة فى معظم البلدان الاشتراكية الأوروبية ٠ إلا أن لها

طرافة فى بعض البلدان المتخلفة : فهى تتجسم فى كلمات تبدو مسالمة • لكنها ذو حدين • فهى تارة : إرشاد ؛ وطورا : توجيه ؛ وأخرى : تنظيم ، ورابعة : رقابة ! وهى أقساها وأشقها جميعا على نفس الكاتب والفنان والمثقف •

فالارشاد يعلم الكاتب كيف يغربل الأفكار ، ويفرز المواقف ، ويضبط الأحداث ؛ والتوجيه يخلق فى ضميره الرقابة الذاتية فتلقنه بدون وعى ، ما يجب أن يكتب وما لا يجب أن يقال أو يكتب ؛ والتنظيم يدعوه إلى التجند والخضوع • والرقابة تكبته وتعرفه الحرام والحلال إن لم تحرق فيه الطاقة الخلاقة • كل ذلك فى سبيل الملاءمة ، والمسايرة ، والوفاق ، والتوفيق !

وإنى لأتساءل كيف تخول بعض الحكومات فى البلاد المتخلفة لنفسها أن تعلن هذه الأمور وتطبقها بينما الشعوب والجماعات والأفراد فى حاجة ماسة إلى الحرية الثقافية والفكرية فى تدبيرها ، وتصرفاتها ، ومصيرها ، ونبوغها ، خصوصا وأن الاستعمار قد أوقع الخلل فى سلم قيمها ، فأعنت فكرها ، وقيد سلوكها فأجهض طلاقتها ، وزيف تاريخها فنال من نبوغها ، وحدد مصيرها بدون جدوى !؟••• فى حين أن الشعوب تترقب الينباعة التى وعدها بها الاستقلال السياسى ، لا سيما وأنها ظلت عاقرا قرنا أو قرونا تنزع إلى الاخصاب بكل قدرتها وامكانياتها ؟ والحال ان الشعوب لا تنبت على جبينها أكاليل الياسمين إلا عاشت مختلف الأفكار ، ومارست ديمقراطيتها ، وأعرب عنها وجدانها •

ونحن نعلم ان نظاما يقول بالتقدمية فى هذا العالم ويرى نفسه رائدا لها قد خلق بل أنتج أصنافا من الروبوات البشرية منها والالكترونية ، لانه يعيش تناقضا مخجلا بين أمسه ويومه ، أمسه الثائر ويومه المتحجر ، ولانه يعتبر نفسه الوصى الوحيد على مصير الشعب ، ولانه يحسب نفهه المفكر بالنيابة عن الشعب ، ولانه جهز شبكة « ثقافية » صنعها على قد مفهومه لها ، ولانه وضع الحرية الفكرية فى المحتشدات وحشرها فيها •••

لم تستخلص بعض الحكومات فى العالم الثالث العبرة من « ربيع براڤ » الذى كسر حواجز الوصاية ،وتجاوز غصص السياسة الوطنية ، فأينع وأخصب وأنجب فكرا وأدبا وفنا بلغ الأوج فى العالم اليوم !••• فكانت بذلك الثقافة الاشتراكية الحق ، وكان بذلك الفكر الحر الحق ! لكن •••

وبعد كل هذا ، هل نستطيع أن نقول : إن بعض الأنظمة فى العالم الثالث قد ورثت تقاليد الاستعمار ، بل وحلت محلها ؟

قد يكون هذا من الاسراف فى الحكم ؛ لكن لو بسطنا قضية الحرية الفكرية فى العالم الثالث لرأينا أن الحرية فى هذا النطاق الجغرافي والحضارى والفكرى لم تعد تتضمن مفهوم الاكتساب ومعنى المطالبة والافتكاك ، (حسب المفهوم الفلسفى الشائع والقائل بأن الحرية لا تعطى وإنما تؤخذ) لأن الحرية قد تـم إرجاعها بالقلم والسلاح من براثن الظلم الأجنبى ٠

أليست الوصاية وما شابهها من الالفاظ إذن تناقضا فى تناقض حين تعلنها وتطبقها بعض الحكومات فى العالم الثالث ؟

أليست الوصاية من هذه الزاوية من التحليل عدوانا مبيتا على الفكر ؟

أليست الوصاية فى هذا المعنى تخريبا لقواعد السيادة الفكرية ؟

أليست الوصاية فى هذا المعنى كذلك تعطيلا لسير التقدم ؟ وتخلفا مضافا إلى تخلف أصلى ؟

كيف الخلاص ؟

* * *

القيادات الفكرية والسيادة الثقافية والفكرية

وثمة قضية لها شديد المساس بمسألة السيادة الثقافية والفكرية والأدبية ولا سيما فى العالم الثالث ؛ وهى قضية القيادات الفكرية فى العالم ٠

إن القيادة الفكرية هى نتاج عوامل حضارية وثقافية واقتصادية وسياسية متشعبة ومختلفة ٠ وهى استقطاب للقرائح والأفكار والنبوغ ٠ وبحكم ذلك تشع اشعاعا قويا حتى تعمى بضوئها الأبصار والأفكار ٠ فترغم الخـارج عن حضيرتها على الاقتداء بها ومتابعتها فى سيرها وتقليد اتجاهاتها ٠

لكن مفهوم القيادة الفكرية فى العالم اليوم صـار من المفـاهيم القـديمة ٠ فالثورات التى تحققت فى مجالات الاخبار ، والابلاغ الجماهيرية فى الوسائل السمعية البصرية ، وفى ميادين المواصلات الجوية واللاسلكية ، وميلاد الاقطار الجديدة فى قارات أمريكا وإفريقيا وآسيا ، وحنين هذه الاقطار الى التعبير ، وشوقها الى التنافس مع جاراتها وكذلك مع الأقوى منها ثروة ، والأنضج منها سياسة ، والاعمق منها حضارة ، قد جردت جميعها خرافة مفهوم القيادة الفكرية من أساسه ٠

ذلك أن كل بلد من البلدان الجديدة قد وعى أنه لا يكون وفيـا لنفسـه ، مخلصا لتراثه ، متحكما فى يومه وفى مصيره إلا إذا انطلق من واقعه المحض فاعتمده فى نظرته إلى الدنيا وإلى الحياة ، وبدون ذلك لا يكون فكر طريف حقا ·

ونتيجة لهذه الثورات والتحررات نجم مفهوم حديث فى العالم اليوم اسماه بعضهم (Simultaneisme) من علماء الاجتماع فى مجال المعرفة · وهو يعنى التواتر الثقافى والتتابع الفكرى والتلاحق الفنى · ذلك أنهم لاحظوا ، فى أغلب الامر ، أن فى كل بلد من هذه الدنيا ثقافة ذات خصائص تختلف فى ماضيها وحاضرها وربما فى غدها عن ثقافة البلدان الأخرى · ولاحظوا أيضا ان فى كل رقعة ثقافية حضارية فى العالم إشعاعا ثقافيا خاصا بها · كالرقعة الصينية والرقعة الاوروبية الغربية والرقعة الامريكية الجنوبية والرقعة الافريقية الناطقة بالانكليزية · ولاحظوا ثالثا ان كل هذه الرقعات تتفاعل فى ما بينها ويؤثـر بعضها فى البعض الآخر فى تتابع مستمر · ولو وضع الانسان أمامه خريطة لأقطار العالم لرأى حسب هذه النظرة أن كل قطر ينبض بما فيه من الفكـر والثقافة والفن بصورة متواترة ومتلاحقة ·

لكن بعض الاخوان والزملاء وكذلك بعض المسؤولين الثقافيين فى بـلادنا ما زالوا يعيشون تحت وقع مفهوم القيادة الفكرية ، ويوالونه كل الولاء · وفى ذلك جهل للواقع الجديد ، وعدوان عليه ، واستخفاف به ·

ولست هنا فى حاجة إلى بيـان هـذا الـولاء بيانـا مفصـلا فى مستـواه السوسيولوجى ، والنفسانى الجماعى ، والثقافى الحضارى · فلقد بيناه فى غير هذه المناسبة وفى فرصة سابقة · فاتهمنا بعضهم بالـوطنية الضيقـة ، والتعصب الثقافى ، والشذوذ القومى · لاننا حاولنا تحريك أدمغتهم التى مـا زالت إلى اليوم تخضع لسلطان فكرى غير نابع من هذا الواقع ولا صادر عنه ، ولا منغمس فيه ، ولا غائص عليه ، ولا متحرك فيه ·

وهؤلاء الاصحاب والزملاء حاججناهم كثيرا فى ندوات شتى · وقلنا لهم : إنكـم :

1) تتبعون غيركم فى مسائل اللغة · فلا تسمحون لأبناء واقعكم باستعمال ما وجب استعماله من الالفاظ والأساليب واللغة إلا إذا ما اخذتم الاجازة من هذا الغير ·

2) تقلدون غيركم فى مضمون انتاجكم وفى شكله ·

بينما هذا الغير يقتبس مضمون انتاجه وشكله عن غيـر آخـر • فكـانت انتاجاتكم بمثابة الثقافة الفرعية فى المستوى الثانى او فى الاصطلاح الحسابى بجـذر 2 •

3) أنكم تغمطون حقكم بانفسكم عندما تتبعون وتقلدون إذ أنكم بصنيعكم هذا تمحون شخصيتكم ، وتنالون من كرامتكم ، وتخربـون سيـادة بلادكـم وتعدمون الحرية فى تفكيركم وكذلك فى انتاجكم •

4) أنكم بصنيعكم هذا تعدون بلادكم فرعا لا أصلا ، وغصنا لا جذعا ، وعجلة لا محركا •

5) أنكم بصنيعكم هذا تبذرون بذور الغربة ، وتشجعـون على الكسـل ، وتجحدون ••• فيصير الكاتب الاجنبى بذلك فى بلادكم الكاتب القومى ويصير الكاتب القومى فى بلادكم الكاتب الغريب ، المغمور ، الذى لا يحترم ، الذى يجحد ويحتقر !

6) أنكم بكل ذلك تخلقون القضايا الزائفة ، فتخلطون بين القيم ، وكذلك بين المفاهيم ، فيكون المأزق الفكرى العقيم !•••

وعلى الرغم من اتهامات أصحابنا ، فاننا ما زلنا نؤمن بالحجج التى قدمناها ونذود عنها ، لأننا نراها أقوم سبيل للابداع والخلق والجهد والمثابرة والاعتماد على الواقع •

* * *

التعليم والسيادة الثقافية والأدبية

إن مراجعة مقومات التعليم فى بلادنا وفى أقطار العالم الثالث لهى واجبة • لأن التعليم هو العصب العرد الذى ترتكز عليه السيادة الثقافية والأدبية • وفى أغلب رأيى ، يجب ان تتم مراجعة التعليم حسب مقتضيات الواقع الجديد وطبقا لما نهدف إليه من خلال مصيرنا واستنادا إلى نماذجنا الثقافية العريقة •

ولست أدرى لم لم تقع مراجعة التعليم والبرامج التربـوية فى الابتـدائى والثانوى والجامعى (وفى مستـوى تـربية الشعب من خـلال الاذاعـة) منذ الاستقلال إلا بقدر ضئيل وضنين •

ولو القى الانسان نظرة واحدة على فهرست كتاب « النصـوص » الأدبيـة

لانزعج ! ولا شك أنه سيلاحظ أن الكتاب القدامى هم أضعاف الكتاب المحدثين من جهة ، وان الكتاب الاجانب هم أضعاف الكتاب الوطنيين من جهة أخرى ·

فكيف يكون تكوين التلميذ والطالب ؟

لا ريب أنه سيقع في مفارقتين تقصيانه عن معرفة واقع بلاده ·

الأولى : الماضى وثقله · فاذا أثقل الماضى عطل السير وأرغب التلميذ والطالب عن المعرفة وقطع بينه وبين يومه · واذا كان هذا الماضى غير الماضى التاريخى الحقيقى ، عطل كذلك وحد من التقدم وهلك بدل الصلاح والاصلاح · وإن التلميذ لا يعرف من ماضى بلاده الأدبى إلا اسماء قليلة · والحال أن هناك كتابا عنوانه مجمل تاريخ الأدب التونسى ألفه المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب الذى أراد أن يلفت به الانظار من طرف خفى إلى أن هذه البلاد انجبت الكتاب والشعراء والمفكرين فى القديم والحديث ·

وزيادة على كل ذلك ، فانه ليس صحيحا ان النصوص القديمة تعلم ما يسمى الفصاحة والبلاغة وروح العربية · فالحديث من النصوص أجدى لانه ناجم عن الواقع الحى الذى تعيشه البلاد وتحياه العربية · ويكون من سداد الرأى ان يتعلم التلميذ والطالب لا أسماء البعير وأشعار الجن والوقوف على الاطلال وخمريات الأعشى وأبى نواس بل الالفاظ التى يكون فى حاجة اليها عندما يصف سيارة وطائرة ومعملا لتكرير النفط والآلات الزراعية المختلفة ، والتراكيب المرنة التى يؤثرها على التراكيب الفرنسية حين يرغب فى التعبير عن الواقع الجديد ، وان يقرأ النصوص التى تلقنه الحرية ، والمبادرة ، وأعمال الخلق والاختراع ، والفعل ، والنجاعة ·

الثانية : الحديث الأجنبى من النصوص يحول انتباه التلميذ عن واقع بلاده وحقيقتها ويرغبه عنها بحكم خلو كتاب « النصوص » أو يكاد من « النصوص » الوطنية · وان هذه النصوص الأجنبية لتعرف التلميذ والطالب واقعا آخر غير واقعه · فهما يعلمان عن البلاد الأجنبية أكثر مما يعرفان عن بلادهما · وإن اتخاذ اللغة كمقياس أمثل لاختيار « النصوص » غير صحيح لانه لا يمكن ان ينسى الأستاذ والمعلم والمربى ان جملة من المقاييس هى التى تتحكم فى هذا الاختيار ومن بينها مقياس إشعار التلميذ والطالب بالاعتزاز بوطنه وبما أنجبه هذا الوطن من تفكير وكتاب ·

ولا شك أن كتاب « النصوص الأدبية لتلاميذ السنة السادسة من التعليم الثانوى » يعطى صورة واضحة للذهنية التربوية التى أعدته ، أقل ما يقال فيها

انها ما زالت تعيش على كتاب « **الأدب العربي** » لحنا الفاخوري ٠ وهو أبشــع كتاب عرفته في تاريخ الأدب ٠

ورغم عدم اختصاصي في ميدان التربية ، فاني أعلم على كل حال ان المربين في العالم يراجعون مفاهيمهم دوما خوفا من الركود والتحجر ، وخاصة خوفا من عدم تكوين الناشيء التكوين العصري الصحيح الذي يساعده على مواجهة قضايا العصر والتغلب عليها ٠

فهل راجع أصحابنا في التربية مفاهيمهم لا في التربية والتعليم فقط ، بل أيضا في مجال معارفهم في الأدب التونسي والعربي وتاريخهما وتصنيفهما ؟

وهل تفطنوا إلى أن التلميذ يتجاوب كثيرا مع نص لأحد الكتاب التونسيين أكثر مما يتجاوب مع نص لأحد الكتاب الاشقاء ولو أن القاسم المشترك بينــه وبيننا هو اللغة ؟ أما الواقع بكل عناصره المتشعبة فلا ! ؟

وهل تفطنوا إلى أن الذي حشروه من الأدب التونسي الحـديث في كتــاب « النصوص » المشار إليه آنفا لا يبلغه التلميذ اللهم بعـد امتحانــات السنــة الدراسية اى في الصيف ! ؟

وهل وعوا « أن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر » واننا نريد ان يكون هذا النقش بحروفنا وأدواتنا حتى يصلح هذا الحجر لبناء الصرح المنتظر ؟

ع٠ م٠

* * *

مـلاحظة : وبعد ، لقد قدمت بعض التحاليل التي تخص جـوانب وقضايـا ومسائل لها مساس متين بالسيادة الثقافية والأدبية ولم أتحدث من السيادة نفسها٠فلذلك أرجيء مقالا تحليليا ونظريا خاصا بها٠

مولد الانسان

لوحة : بقلم البشير بن سلامة

مَزّقَ البَرْقُ غِشاءَ السُّحُبِ فِي عُنُفٍ لاَ زَوَرْدِيٍّ ، وَأَشْعَلَ مِنَ السَّمَاءِ ثُقُوباً لَزِجَةً غَمَرَتْ بِسُيُولِهَا الشَّارِعْ ، وَقَيَّدَتْ فِي تَحَدٍّ أَصْفَرَ مُزَلْزِلٍ كُلَّ انْطِلاَقٍ نَحْوَ تَخَطّي المَنَازِلْ. وَلَبِستِ الطُّفُولَةُ بُرْقُعَ الدَّهْشَةِ وَالْفُضُولْ . وَأَعْجَبَهَا مِنَ الدُّنْيَا وِشَاحُ الزَّعَازِعِ وَبَشَائِرُ الدَّمَارْ . وَأَنِسَتْ الجَدَّةُ بِوَحَلِ الْفِنَاءِ يَغْمُرُ الْوُجُودْ وَقَدْ تَرَهَّلَ زَمَانُهَا وَخَاطَ لَهَا ثَوْبَ انْتِظَارْ وَأَفَاضَ عَلَيْهَا أَمَلاً قَاتِماً وَتَوَقَ نَجَاةْ . وَانْطَلَقَ لِسَانُهَا مِنْ مَغَابِنِ الْيَأْسِ إلى مَسَامِعِ الامَلِ وَالرَّجَاءُ يَقُصُّ مَلْحَمَةَ آدَمَ فِي الْجَنَّةْ .

قَالَ مُتَرْجِماً عَنْهَا :

« مَلَكٌ أَوَّلْ : حِينَ أُلْقِيَ إِلَيْنَا آدَمُ نُعَلِّمُهُ مَعَ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ لَمْ يَكُنْ فِي عَيْنَيْهِ إِلاَّ لَمْعُ تُرَابٍ وَفِي سِحْنَتِهِ لَوْنٌ إلى الطِّين أَضْيَعُ نَسَباً وَإِلَى كُدْرَتِهِ حَقِيقٌ بِالْعَطْفِ وَالرَّحْمَةْ

مَلَكٌ ثَانٍ : أَيْنَ هُوَ مِنْ قُوَّةِ الاسَدْ ، وَضَرَاوَةِ النَّمِرْ ، وَضَخَامَةِ الْفِيلْ ؟

مَلَكٌ ثَالِثْ : أَبْعِدْ بِهِ عَنْ صَبْرِ الْحِمَارْ ، واحْتِيَالِ الثَّعْلَبْ ، وَذَكَاءِ الْقِرْدْ ، وَأَسْرِ النَّسْرْ !

المَلَكُ الاولْ : مَا أقربَهُ مِنَ الزّاحفَاتِ وَالْعَاطِلاتِ وَالنَّاعِسَاتِ ... !

المَلَكُ الثّانِي : وَالْيَوْمَ تَطَلَّقَتْ مِنْهُ الاسَارِيرْ ، وَتَألَّقَ فِي عَيْنَيْهِ بَرِيقٌ أنْفَذُ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسْ ، وأحَدُّ مِنْ وَقْعِ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ اللهْ .

المَلَكُ الثَّالِثْ : وَأشَعَّ مِنْ وَجْهِهِ سِحْرٌ أخْرَسَ طُيُورَ الْجَنَّةْ ، وَألْبسَ الْفَصِيحَ مِنْهَا عِقَالَ الصَّمْتِ وَأحْيَا فِي قُلُوبِ المَخْلُوقَاتِ حَوْلَهُ بُذُورَ الْعُنْفِ وَنُعْرَةَ الشَّرْ .

وَانْفَلَقَتْ جُمُوعُ الْمَخْلُوقَاتِ ، زَاحِفَةً مُكَشِرَةً عَنْ أنْيَابٍ زُرْقٍ كَلَوْنِ الشَّرْ ، وَزَأرَ الاسَدُ نَحْوَ الْمَلاَئِكَةِ زَئِيراً مُرّاً :

— لَنْ نَكُونَ فِي غَبَاوَةِ آدَمَ وَغَفْلَتِهْ . وَلَنْ نَفْتَحَ لِلأسرَارِ الإلَهِيَّةِ قُلُوبَنَا إلاّ بِجَزَاءْ . نَحْنُ كَمَا نَحْنُ ، قَبْلاً وَبَعْدُ . وَمَنْزِلَتُنَا مِنْ رَبِّنَا لَمْ يُحَسِّنْهَا عِلْمٌ وَلاَ مَعْرِفَةْ ؛ وَلَمْ يُغَيِّرْ مِنْ نُفُوسِنَا وَحَيَاتِنَا تَهَجُّدٌ بِاللَّيْلْ وَلاَ عَمَلٌ بِالنَّهَارْ .

المَلَكُ الاوّلْ : لَذَةُ المَعْرِفَةِ الإلَهِيَّةْ ، غُنْمٌ يَفْتَحُ أقْفَالَ الْقُلُوبْ .

الاسَدْ : لاَ يَفْتَحُهَا إلاّ الْجَزَاءْ ...

مَلَكٌ رَابِعْ : حَرْفٌ وَهَّاجٌ مِنْ حُرُوفِ اللَّوْحِ المَحْفُوظْ ، يُزْجَى كُلَّ شَهْرٍ لِمَنْ نَفَذَ فِي قَلْبِهِ النُّورُ الإلَهِيّ وَأحَالَهُ شَفَّافاً كَلَمْعَةِ الْبَرْقِ فِي ظُلْمَةِ الادِيمْ .

وتَقَاطَرَتِ الْحُرُوفُ الْوَهَاجَهْ ، عَلَى آدَمَ مَطْلَعَ كُلِّ شَهَرٍ ، وَأَشَاعَتْ فِي نَفْسِهِ لَذَّةً لَمْ يَدْرِ أَهِيَ الْقَرَارُ يَشُدُّهُ إلى وُجُودِهِ ، أَوْ هِيَ غَيْبُوبَةُ الزَّوالِ يَنْخَرُهَا سُوسُ الْفَنَاءِ ؟ لَذَّةٌ تَعْمُقُ إلى الْحَشَا ، وَتَنْزِلُ إلَى دَفِينِ كِيَانِهْ ، وَتُزَلْزِلُهُ شَوْقاً وَلَهْفَهْ . أَيْنَ مِنْهَا لَذَّةُ الامْسِ تَفْتَحُ الْقَلْبَ وَتُشِيعُ مِنْهُ سِحْرَ الرَّاحَةِ الْمِعْطَاءْ ، وَالنُّورِ الْمُتَأَلِّقْ ؟ مَا أَضْيَعَ الْمَلَكَ الرَّابِعَ ؟

الثَّعْلَبُ : هَذَا المَلَكُ الرَّابِعْ أَضَاعَنَا تَسَامُحاً وَطِيبَهْ ، وَشَحَّ عَلَيْنَا بِالنُّورِ الإِلَهِيِّ فَانْقَلَبْنَا فِي حَضْرَتِهِ عَابِثِينْ . لَوْ هَجَوْنَاهُ .

وَهَجَاهُ آدَمُ سِرّاً بِقَصِيدَةٍ عَمُودِيَّهْ دَسَّهَا فِي أُذُنِهِ مِنَ حَيْثُ لاَ يَرَى وَيَسْمَعْ . وَكَانَتْ أَوَّلَ عَهْدِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالْهِجَاءْ . وَأَشَاعَ الثَّعْلَبُ السِّرَّ فَأَخْفَى آدَمُ الْحُرُوفْ ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهْ الْمَلاَئِكَهْ وَرَجَّتْهُ رَجَّةً فَأَحَسَّ لَهَا لَذَّةً وَلاَ لَذَّةَ الامْسْ ، تَعْمُقُ فِي الْحَشَا وَلَكِنَّهَا تُقَطِّعُهُ ، وَتُزَلْزِلُ كِيَانَهُ تَمْزِيقاً وَتَفْتِيتاً .

لَقَدْ عَرَفَ آدَمُ الأَلَمْ .

وَتَجَاوَبَتْ أَرْجَاءُ الْجَنَّةِ مُزَلْزِلَهْ :

– لآدَمَ النَّجَاحُ وَلاَ حَرْفْ ، وَلَهُ التَّفَوّقُ وَلاَ فَوْزْ .

وَضَحِكَتِ الْمَخْلُوقَاتُ بِأَلْوَانٍ مُشْتَبِكَةٍ مِنَ السُّخْرِيهْ صَنَعَ لَهَا آدَمُ دِرْعاً كُلَّمَا صَكَّتْهُ وَلَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مُقَهْقِهَهْ .

وَأصمتّ الضّحكَاتُ سَمْعَ آدَمْ ، مَطْلَعَ كُلّ شَهْرْ ، حِينَ يَرْتَقِي الدّرَجَةَ الاولَى وَلاَ حَرْفْ . وَكَأنّهَا شَحذَتْ هِمّتَهُ فَانْهَالَ يَتَقَبّلُ الانْوَارَ الإلَهِيه .فِي جُوعٍ لَمْ يَعْرِفْهُ أهْلُ الجَنّةْ وَخلَطَ لَذّةَ الامْسِ بِلِذّةِ الْيَوْمِ فَلَوّنَتْ وَجْهَهُ بِخُطُوطٍ تَعجّبَ لَهَا الْمَلاَئِكَهْ ، وَرَأوْهَا ، كُلّمَا نَهلَ مِنْهَا آدَمْ ، رُسُوماً تَوَشّحَتْ بِهَا الْمَعْرِفَةُ الإلَهِيَهْ ، وَتَبَيّنُوهَا خُطُوطاً سَوْدَاءْ بَيْنَ أشِعّةِ الانْوَارِ الرّبّانِيّهْ .

وَحَاوَلَ الْمَلاَئِكَةُ غَسْلَ الْخُطُوطِ فَزَادَتْ غَوْراً وَألحّوا عَلَى الانْوَارِ يُكَيّفُونَهَا فَتَلَطّخَتْ أيْدِيهِمْ سَوَاداً . فَرَفَعُوا أمْرَهُمْ إلَى رَبّهِمْ وَأعْلَنُوهَا حَيْرَةً زُلْزِلَتْ لَهَا أرْكَانُ الْجَنّهْ . فَضَحِكَتْ كُلّ المَخْلُوقَاتِ سُخْرِيّةً وَانْتَظَرَتْ .

وَنُودِيَ إلى آدَمَ أنْ لَكَ فِي حَوّاءَ الْحَرْفُ الْوَهّاجُ الدّائِمُ فَلاَزَمَتْهُ وَلاَزَمَهَا لُزُومَ النّفْسِ والآخَرْ وَرَنَتْ إلَيْهِمَا مَخْلُوقَاتُ الْجَنّهْ عَجَبا وَإعْجَابا . وَلَكِنّ الخُطُوطَ زَادَتْ عُمْقا وَالانْوَارَ تَلَفّعَتْ بِرِدَاءٍ رَمَادِيّ فَنَفَخَ الْمَلاَئِكَةُ فِي بُوقِ الإنْذَارْ وَمَا أنْ أقْلَعُوا حَتّى دُفِعَتْ إلَيْهِمْ بَذْرَةُ الخَلْقِ غَضْبَى فَأنْبَتُوهَا قَسْرا فِي رَأسِ آدَمْ فَعَاوَدَهُ مَزِيجٌ مِنْ لَذّةِ الامْسِ وَلَذّةِ اليَوْمْ . وَدَمَعَتْ عَيْنُهُ دَمْعَةً بَرِيقُهَا كَقَبْسَةٍ مِنْ نُورٍ إلاَهِيّ لَمْ يُخَالِطْهُ سَوَادْ .

فَكَانَ أوّلَ عَهْدِهِ بِالدّمْعْ .

وَانْتَابَ الْمَلاَئِكَةَ هَلَعٌ شَدِيدْ . آدَمُ يَنْفُثُ أنْوَاراً ثُمّ

يَغْسِلُهَا بِدَمْعِهِ فَتَتَأَلَّقُ وَتَتَوَهَّجُ ، وَيَرْقُصُ لَهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الرَّقْصْ وَيَجْثُو لَهَا مِنْهَا مَنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ رَجًّا وَإِرْهَاقًا .

وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ وَغَسَلُوهُ بِالتُّرَابِ وَالطِّينْ ، فَلَمْ يَزِدْ إِلاَّ تَوَهُّجًا وَانْعِتَاقاً فَشَكَوْهُ إِلَى رَبِّهِمْ فَقَدَّرَ وَأَمَرْ ، أَمَرَ أَنْ تُسْتَلَّ مِنْهُ بِالأَلَمِ وَالْحَسْرَهْ بَذْرَةُ الْخَلْقْ ، وَتُخْلَطَ بِمَاءِ الْفَنَاءِ وَزَيْتِ الزَّوَالْ وَتُزْرَعَ فِي قَلْبِ آدَمَ وَلَيْسَ لَهَا مِنْ جُذُورٍ فِيهِ وَفِي عَقْلِهِ إِلاَّ « اللَّهْوْ » .

وَفِي الْفَجْرْ دَلَّهُ الْمَلاَئِكَةُ ، رَحْمَةً بِهِ ، عَلَى الْخَمْرْ . ثُمَّ كَانَ مَوْلِدُ الإِنْسَانِ عَلَى الأَرْضْ . »

البشير بن سلامة

الفرق بين الفنيقيين والبونيقيين

بقلم : محمد فنطر

إذا تناولنا من تاريخنا درس الفترة التى سبقت تسلط الرومان على بلادنا لاحظنا أن المؤرخين يتحدثون تارة عن الفنيقيين والحضارة الفنيقية ويتحدثون طورا عن البونيقيين والحضارة البونيقية • وقد تراهم ينعتـون نفس البقايـا الأثرية بالفنيقية تارة وبالبونيقية تارة أخرى حتى يخيل للقارىء أن لا فـرق بين الفنيقيين والبونيقيين وأن للفظتين نفس المحتوى • ولا فرق بالتالى بين الحضارة الفنيقية والحضارة البونيقية • والحقيقـة فى رأينـا دون ذلك كمـا سنحاول إبرازه فى هذه الأسطر المتواضعة •

ولكن من هم الفنيقيون ؟ لقد ورد هذا الاسم فى كتب القدمـاء من يونـان ورومان • ولعل أقدم النصوص التى أوردت اسم الفنيقيين وتحدثت عنهم هى أشعار هوميروس صاحب الملحمتين • وجاء اسم الفنيقيين فى كتب المـؤرخ اليونانى هيرودوت (Hérodote) وغيرهما كثيرون • فالكلمة اليونانية التى استخدموها فى هذا الصدد هى (Phoinikes) وإن سطرناها بأحرف لاتينية فذلك لأسباب مطبعية بحتة •

أما المصادر اللاتينيـة فلقـد تحـدثت هى الأخـرى عن الفنيقيين تسميهم (Phœnices) ومن بين هاته المصادر نكتفى على سبيل المثال بذكر تيت ليف (Tite - Live) المؤرخ وبذكر الشاعر فرجليوس (Virgile) ذلك الذى تغنى بملحمة غرامية عاشتها ديـدون (Didon) وهى التى تعـرف عنـد الفنيقيين بعليسة •

تحدثت النصوص اليونانية اللاتينية إذن عن الفنيقيين وهم الذين كانوا حسب هاته المصادر نفسها يقطنون باقصى السواحل الشـرقية من البحـر الأبيض المتوسط وهى السواحل التى تمتد بين خليج الأسوس شمالا وجبال الكرمل جنوبا • وكانت هاته الأمة الفنيقية تسكن مدنـا أسسوهـا كالعقـد المنضود على شاطىء جميل نشوان تهدهده موسيقى الأمواج وتنعشه بعطرها أشجار الأرز السامقة تحكى غنجها من أعلى جبال لبنـان الشـاهقة الفخـورة بنصاعة عمائمها الوهاجة •

فالفنيقيون هم الذين ملؤوا هاته الربوع بضجيج حياتهم ضجيج تجسم فى قصور الملوك ومعابد الآلهة وموان للسفن وأرصفة تلتقى فيها الحضارات بما تحن به السماء وتنتجه الأرض وتخلقه العبقريات وتسبكه الأيادى بخشونتها ولطفها • وتجسم ضجيج الفنيقيين بتلك الربوع فى منازل ومقابر وجواهر وتمائم وقصص وأساطير وغيرها من مظاهر الحياة فى الدنيا وما وراءها • فهى أفراح وأتراح وزغاريد ونـواح وفيها البسمـة والدمعـة وفيها الحب وفيها البغضـاء •

أولائك هم الفنيقيون• والثابت أنه اسم يونانى الأصل • وتناول بعض فقهاء اللغة اليونانية لفظة (Phoinikes) بالدرس قصد الوقوف على معانيها وفهم الأسباب التى جعلت اليونان يلقبون أولائـك القـوم بالفنيقيين • فيبـدو أن كلمـة (Phoinikes) تعود إلى المادة اليونانية (Phoinix) ولها معنيان • فهى تشير إلى شجرة وتشير إلى لون • أما الشجرة فهى النخلة واللون المشار إليه بلفظة (Phoinix) هو الأرجوان •

من ذلك نشأت نظريتان فى ضبط الأسباب التى جعلت اليونان يطلقون اسم الفنيقيين على الذين كانوا يقطنون بالسواحل التى ذكرنا منذ حين • فالنظرية الأولى تقول إنهم لقبوهم بالفنيقيين إشارة إلى وفرة النخيل فى بلادهم • لكن المعطيات الجغرافية تحول دون هذا التفسير والمعلوم أن بلاد الفنيقيين ليست من التى اشتهرت بواحاتها ونخيلها •

بقيت النظرية الثانية وهى القائلة إنهم لقبوا بالفنيقيين اعترافا لهم بفضلهم فى اختراع الأرجوان تلك المادة التى تستخرج من بعض الأصداف وتستخدم لصبغ منسوجات الصوف والكتان بلون أرجوانى بنفسجى • وأثبت أهل الذكر فى هذا الميدان أنه لون يتغير بتغير درجـة الحـرارة التى تسلط عليه أثنـاء الصبغ • وتجدر الاشارة إلى تفوق النظرية الثانية أى تلك التى تربط بين اسم الفنيقيين والمادة اليونانية التى تعنى الأرجوان • على كل فذلك ما أقرته أحدث الدراسات حول هذا الموضوع ونذكر منها على سبيل المثال ما جاء فى كتـاب « عالم الفنيقيين » الذى ألفه المستشرق الايطالى (1) سباطينو مسكاتى الصادر بمدينة ميلانو سنة 1966 •

لا شك أن الفنيقيين كانوا من كبار التجار فى عصرهم مما جعلهم يجوبون البحار ويؤسسون المصارف والمدن على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وقد

(1) Sabatino Moscati , Il mondo dei Fenici , Milano 1966

تعرفوا على سواحله الغربية منذ الألف الثانية قبل الميلاد فلقد أثبتت النصوص القديمة أنهم أسسوا مدينة أوتيك سنة ١١٠١ ٠ وفى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد برزت للوجود مدينة فنيقية كبرى احتضنتها شبه جـزيرة من ربوعـا قرب « تونس » وسموها « قرت حدشة » ومدلول العبارة : المدينة الحديثة وقالوا العاصمة الحديثة ٠ واعترى العبارة الفنيقية تحـريف حـرفى صـوتى حتى بلغتنا فى ثوب « قرطاج » ٠

فقرطاج إذن مدينة فنيقية باعتبار مؤسسيها الأولين لكن سرعان ما بلغت أشدها وعملت على تحمل مسؤولياتهـا وخط طريقهـا حسب إرادتهـا وقـد ساعدتها ظروف سياسية عسكرية على تزعم المدن والمراكز الفنيقيـة بغـربى البحر الأبيض المتوسط ٠ ليس المجال هنا للحديث حول الظروف التى مرت بها قرطاج والمدن التى أسسها الفنيقيون بالمغرب الكبير وبصقلية وبسردانيا وجزر البلجار وجنوب اسبانيا ٠ لكنه من الجدير أن نشير الى ظاهرة نلمسها فى النصوص اللاتينية ومنها تسربت إلى الكتب والدراسات التاريخية ٠

ففى هاته النصوص اللاتينية نجد فضـلا عن كلمـة (Phœnices) التى يطلقونها على سكان البلاد الفنيقية الشرقية كلمة ثانية وهى (Pœni) وبهـا يشيرون إلى الذين فى رأيهم ينتمون إلى الحضارة الفنيقية ويقطنون بالأصقاع الغربية من البحر الأبيض المتوسط ٠ وكلمة (Pœni) مشتقة من نفس المادة اليونانية التى تولد عنها اسم الفنيقيين أى مادة (Phonix) بمعنى الأرجوان كمـا أسلفنـا ٠ ولكلمـة (Pœni) اشتقاقات عـديدة منهـا نعت (Punicus) وإليه تعود كلمـة « البونيقيـون » ٠ يقـول الرومـان (Lingua punica) مثلا فنقول « اللغة البونيقية » ٠

فيبدو على ضوء ما سبق أن النصوص الـلاتينية تميـز بين الفنيقيين فى الشرق فتسميهـم (Phœnices) وبين الفنيقييـن فى الغـرب فتسميهـم (Pœni) ٠ وقـد ذهب فى اعتقـاد بعضهـم أن الفـرق بين الفنيقييـن والبونيقيين لا يتجاوز المفهوم الجغرافى ٠ فمضمون هاته النظرية أن المؤرخين الرومان أرادوا اجتناب الخلط واللبس بين الفنيقيين الـذين يقطنـون المـدن الفنيقية فى الشرق ومن أهمها صور وجبيـل وصيـدا وبين الفنيقيين الذين يقطنون المراكز والمدن الفنيقية على سواحل غربى البحر الأبيض المتوسط ٠ كذلك لفظة (Phœnices) تحمل القارىء الى الشرق ولفظة (Pœni) تتوجه به إلى الغرب ٠

لا يخلو هذا التفسير من بعض الصحة لكنه فى رأينا لا يشير إلى كل مـا

تحتويه لفظة (Pœni) • أجل إن البونيقيين هم الذين ينتمون إلى الحضارة الفنيقية ويقطنون بربوع تهددها أمواج غربى البحر الأبيض المتوسط • على أن ذلك لا يحتم انتسابهم جنسيا إلى الذين أقبلوا من السواحل اللبنانية بل من المرجح أنهم ينتسبون غالبا إلى الأرض التى حل بها ركب الفنيقيين • فالبونيقيون فى مغربنا مثلا هم نتيجة لقاء الأفارقة بالعناصر الفنيقية التى أقبلت من الشرق • وقد يكون ذلك اللقاء حضاريا وقد يكون صهرا بين الأجناس • مع الملاحظ أن المزج بين الأجناس كثيرا ما يكون سببا أو نتيجة للقاء حضارى •

كذلك نتبين أن البونيقيين ليسوا أولائك الفنيقيين الذين غادروا صور أو جبيل أو صيدا وأسسوا مدنا على شواطئنا كأوتيك ولبدة وحضرموت واستوطنوها بل هم الذين تولدوا عن ذلك اللقاء الحضارى بمعناه العميق الفسيح • فالحضارة البونيقية ليست حضارة الفنيقيين بغربى البحر الأبيض المتوسط بل هى حضارة طريفة تولدت عن احتكاك الحضارة الفنيقية الشرقية بحضارات وجدها الفنيقيون فى ربوع تطل على مياه غربى البحر الأبيض المتوسط •

إن الحضارة البونيقية فى بلادنا هى نتيجة احتكاك الحضارة الفنيقية الشرقية بحضارة الأفارقة • فالعناصر التى تتركب منها حضارتنا البونيقية عديدة مختلفة فهى وإن غلبت عليها الألوان الفنيقية الشرقية لا تخلو من العناصر الحضارية الاقليمية الوطنية كما يبدو ذلك جليا فى ضريح دقة وهو كما تشير إليه النقيشة من عمل بناء نوميدى أو قل إنه يحمل اسما لوبيا • ونلمس ذلك أيضا فى صور رسموها بطلاء أحمر على جوانب إحدى قبور جبل ملزة بالوطن القبلى •

على أن تلك الحضارة البونيقية ليست جملة العناصر الحضارية المختلفة التى أشرنا إليها بل هى خلاصتها وفى الخلاصة إشارة إلى جديد طريف له من المميزات ما يجعله يختلف اختلافا جذريا عن العناصر الأولية التى تولد عنها •

فالفرق فى رأينا بين الفنيقيين والبونيقيين كبير وله ابعاد مختلفة منها الجغرافية ومنها السياسية ومنها البشرية وينتج عن ذلك كله أبعاد حضارية فالفنيقيون هم الذين كانوا يقطنون بالسواحل اللبنانية الحالية وكانوا يترددون على سواحلنا منذ الألف الثانية قبل ميلاد عيسى وحضارتهم فنيقية بما يتضمن ذلك من عناصر مختلفة ومميزات ليس المجال هنا للحديث عنها •

ولما ألقت سفنهم مراسيها فى موانى غربى البحر الأبيض المتوسط وحلوا بهذه الربوع وأسسوا فيها المصارف والمدن واحتكوا بأهل تلك الربوع فأثروهم واستثروا تولدت عن ذلك حضارة جديدة طريفة سموها الرومان « حضـارة بونيقية » وأطلقوا على الذين سبكوها اسم البونيقيين ٠

م٠ ف٠

(*) هذه خطوط عامة من دراسة قدمت فى ملتقى حول الحضارة الفينيقية فى البحر الأبيض المتوسط انعقد بروما فى نطاق معهد دراسات الشرق الأدنى بجامعة روما وستظهر هذه الدراسة فى نشرية خاصة بأعمال الملتقى ٠

• الجائزة القومية لذكرى 9 أفريل 1938 :

تعلن مصلحة التوجيه للحـزب الاشتراكى الدستورى والشركة التونسية للتوزيع أن الجائزة القومية لذكرى « 9 أفريل 1938 » والبالغ مقدارها ألف دينار المرصودة من الشركة التونسية للتوزيع ، شروطها ما يلى :

1) أن تكون القصة مستوحاة من واقع النضال القومى ٠

2) ألا تقل صفحاتها عن مائة صفحة مرقونة ٠

3) أن تقدم فى خمس نظائر ٠

4) ألا تكون نشرت من قبل ، ولم تقدم لمسابقة أخرى ٠

5) أن آخر أجل لتقديم القصة ، هو : 31 جانفى 1971 ٠

6) أن الجائزة غير قابلة للتقسيم ٠

7) يعلن عن القصة الفائزة فى حفل يقام بمناسبة ذكرى « 9 أفريل 1938 » لسنة 1971 ٠

8) سعيا لتوفير الوقت للقصاصين ، فان الجـائزة القومية تكون بعد كل سنتين ٠

نهر الميكونغ

شعر : جعفر ماجد

(وصفت جريدة le Monde نهر الميكونغ حين يدخل القرى والمدن بضحايا الفياتناميين فيخرج النـاس لاستقباله متصايحين : جاؤوا ! جاؤوا !) .

واصلْ سبيلكَ واسقِ السهلَ والحزنَا ... واجرفْ ضحاياك لا تطلبْ لها سُفُنا
ما أجملَ الشمس في الآفاق ساهمةً ... كالعينْ تحمِلُ في أهْدابها الوَسنَا
جَنَازَةُ المَاءِ أنْغَام يُوَقِّعُهَا ... صَوْتٌ مِنَ الصمتِ لا يستوْثقُ الأذنَا
ضَمَائِرُ الطَّيْرِ وَالاحْجَارِ تَسْمعهُ ... وَرَعشةُ الغُصنِ تحكيهِ إذا سكنَا
النَّاسُ يَنْتظِرُونَ الآنَ مَقْدَمَهم ... لانكَ اليَوْمَ قدْ أصْبحتَ مُؤْتمَنَا
لا تُخلفُ الوَعدَ إن هبُّوا كعادتهم ... ولا رَأوْكَ شكَوْتَ السَّأمَ وَالوَهَنَا
عَجِّل بِهِم لا تفكّرْ في مراكبهم ... كلاَ وَلاَ تُعْطِهِم قبْرا ولا كفنَا
العَالَمُ انْهارَ حتى عَادَ سَاكِنُهُ ... لاَ تَشْتَهِي رُوحُهُ أنْ تسكُنَ البدنَا
حَضَارَةَ اليَوْمِ لا يَحْيَا بها بَشَر ... إنْ لَمْ يَكُنْ مَيِّتا في ذاتِهِ عَفِنَا
مَنْ لمْ تُنقَلْ بمَاء النَّهرِ جُثتُهُ ... يَكْفيهِ مِن نَفْسهِ مَوْتا إذا جَبُنَا
يَا نَهْرُ لاَ تَبْكِ مَيْتاً قَالَ كلمتَهُ ... وانْدُبْ شَبِيهاً بِهِ فِي جلْدهِ دُفِنَا
حيَاتُنَا لَمْ تَعُدْ إلاّ مُقَامَرَةً ... يَعِيشُهَا الحُرّ مَنْبوذاً ومُمْتَهَنَا
وَيَكْسِبُ السبْقَ فيهَا كُلّ مُنْتهِز ... بِفِكْرِهِ فِي مَوَاخِيرِ الحَيَاةِ زَنَى
يَانهرُ لوّثْ جَبِينَ الأرْضِ من دَمِهم ... فالأرْضُ مذْ بُسطتْ لم ترْوَ من دمنَا
هُنَاكَ مَاتَ شجَاع صَانَ عزّتَهُ ... وَآخَرٌ بِسِيَاطِ الذُّلّ مَاتَ هُنَا

هَـذَا يُمَزِّقُهُ جُوعٌ وَيَنْهَشُـهُ ... وَذَاكَ في دمهِ المَسفُوكِ قد عُجِنَا

وَثَالِثٌ في كُهُوفِ اللَّيلِ تُرْقِصُهُ ... مَلِيحَةٌ خَلَّفَتْ في قَلْبِهِ الشجنَا

يَا ضَيْعَةَ العُمرِ نقْضِيهِ بلا هَدَفٍ ... مثْلَ الضّفَادِعِ وَادِيهَا بِهَا أفِنَا

تَعِيشُ في غمرَةِ الاوْحالِ راضيةً ... إن نقنقَتْ حَسَبَتْ أن الحياةَ غِنَا

أوّاه من لعْنَةِ الاجْيالِ لوْ عَلمتْ ... أنَّا قَتَلْنَا بِأيْدِينَا ضَمَائِرَنَـا

إنْ كَلّفَ اللهُ نَفْساً فوقَ طاقتِهَا ... فَهَذِهِ الارْضُ قَدْ باتَت لنا وطَنَا

ج. م.

حمراء مثورة الاسد

قصة ، بقلم : مصطفى الفارسي

بـاب الأسـد والثـور (تابـع)

قال على بن الشـاه سطـا على الفـارسى رأس السلالة التى منها انحدرت وهى سلالة سحوان رحمه الله وبرد ثراه · تفرقت طرائق وتمزقت حرائق فاستقر منها فى بلاد المغربَ شظايـا اكلت الغلـه ودخلت فى الملة واغرتها شمس هذه السواحل الآمنة المطمئنه فضربت فى الخضراء خيامها ووجدت من عاشرت من اهلها وغير اهلها فأقامت فيها على ألفة ووئام الى يوم الناس هذا ولله العودة والمآل ·

قال جدنا المرحوم سحوان فى مذكرات له عثر عليها والدنـا بين ركام زاوية الشيخ مرزوية بن مهرويه صاحب كتاب « **الأنـات** » يوم هدمت البلدية حرم الشيخ بوازع التجديد ووجوب توسيع الطرقات والتمديد وهو وازع محمود وواجب للتعمير منشود · قـال تغمـده وآله اجمعين رب الحلق بالطافه فى هذه الدار الاريضة وفى دار الآخرة الواسعة العريضة ·

قـال :

« لما انفذ كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز ملك الفرس ، رأس الاطبـاء سطا على بن برزوية الى بلاد الهند لأجل كتاب رأس البراهمة بيدبا الفيلسوف ، حضر اليه الرجل الذى استنسخ الكتاب له سرا من خزانة الملك ليلا وادعى الرجل انه نسخ الاوراق التى عثر عليها على ضوء شمعة شحيحة ذابت فلم يجد من الوقت ما يكفيه لعمل كامل النسخة فآثر ان يظفر منها بما تمكن من جمعه من الاوراق وهى من باب الأسد والثور الذى هو بأول كليلة ودمنة الذى تـرجم الى لغـة العرب فى صدر الدولة العباسية · لكنه رجع الى الخزانة فى الليلـة التالية وتمكن من نسخ بقية الاوراق فلم يستطـع تسليمهـا الى ابن برزويه الا بعد طبع الكتاب لاسباب لا يعلمها الا الله فحفظها جدنـا فى ملفاته ولم يتلفها رغم اسفاره وتنقلاته فتوارثها الابناء والاحفاد أبا عن جد وها هى ذى اليوم تطلع على الناس فى ترجمة حاولنـا أن

تكون فى متناول كل يد رغم فصاحة العبارة وايضاح الاشارة واحكام المبنى • وقد يعتريها بعض لفيظات املاها علينا العصر وفرضها على ذوق القراء « قوم المجددين الطلائع » وهم ـ كما نعلم ـ لا يقيمون لبلاغة الاجداد وزنا ولا يستعملون الحال الا اذا كان لا مناص من المحال ولا يبدؤون بالمبتدإ ولا يرفعون الخبر ولا ينصبون المفعول به اذ لا يعتبرون فى الجملة غير فاعلها الفاعل • وهم أصحاب العصر وهم ادرى بالذى فيه • وقد عولنا ونعول دائما على عناية رب الخلق الذى علم الانسان ما لم يعلم وتحفزنا لهذه الترجمة لنثمر باذاعة الوريقات الاضافية هذه حديقة ثقافتنا « الاصيلة المتفتحة » المشرقة بطوالع العرفان والتنوير ، غفر الله ذنوبنا والزلل والعثرة وسترنا فى الدارين الآخرة والاولى بحرمة طه ويس وكرامة جدينا الحسن والحسين ••• آمين •

حمراء مشورة (I) الأسد

الأسد فى المشورة :

لما حمل نوح عليه السلام فى سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه : كيف نطمئن ومعنا الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى وهى أول حمى نزلت فى الارض قال بيدبا الفيلسوف الى الملك دبشليم :

الأسد من السباع والانثى أسدة • وله اسماء كثيرة • فمن اشهرها أسامة والحرث وقسوة والغضنفر وحيدرة والليث والضرغام • ومن كناه أبو أشبل وأبو العباس وغيرها كثير •

وأسد قصتنا أيها الملك العظيم من فصيلة تشبه وجوهها وجه الانسان • وجسده كالبقر تماما ـ بقر الجنة بطبيعة الحال ـ وله قرنان سوداوان طولهما نحو شبر • ولدته أمه بقفر من الارض يابس عابس فى مشورة كان يؤمها ويقيم بها ثلاثة ثيران • ثور ثور وثور نصف ثور وثور لا ثور كالبشر تماما منهم الرجال وانصاف الرجال واشباه الرجال ولا رجال •

وكان اول ثيراننا ابيض ناصع البياض فى لون اللبن فى لون الثلج فى لون البرد •

(I) مشورة على وزن مفعله بسكون الفاء وفتح العين كمدخنة ومروحه ومذبحة ومندبة ومعصره الى غير ذلك • وهى من ثار يثور • وهى الارض الكثيرة الثيران • المنجد ص 79 •

وكان الثاني اسود قاتم السواد في لون الفحم في لون التوت في لون المداد.

وكان الثالث بين بين . أعلى وبره أغبر وأوسطه أحمر وأسفله أدكن . في لون براقش يدل على أخويه وعلى ما بالاجمة من دقاق الحيوان وغلاظها بالليل والنهـار .

وكان بعض الصيادين قد ضربوا أرواقهم حول الاجمة يتربصون بالثيران الدوائر ويضمرون لهم وللأسد الغوائل . فقد اقتنصوا أم الأسـد في يـوم مشؤوم ثم اختطفوا والده في ليلـة نحس . واوثقـوهما وقـادوهما لحـديقة البلفيدار وألقوا بهما في قفص من حديد وانهما ليتميزان من الغيظ في سجنهما الى يوم الناس هذا لا حيلة لهما ولا طول . فليس العاقل ايها الملك العظيم من يحتال للامور اذا وقع فيها وانما العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها . كانا في غفلة وهما يحتفلان بالمولـود الجـديد فتركـا النظـر في العـاقبة . كانت الأسدة يومها تستظل من الهجير وكان الأسد ليلتذاك رابضا على حجر يفكر في لحيته وقد وخطها بعض الشيب كيف يقتلع شعيراتها البيضاء ... كان حجرا على حجر لا يعلم ان أنفه في السماء وأسته في الماء . ولعله كان يعتقد انه كحمام مكة لا يثار ولا يقنص . لم يكن ليتوقع انه سيقضي وزوجته ليلته تلك وراء قضبان الحديد في قفص الحديقة .

وبقي الأسيد الوليد في وجاره قطعة لحم هـامدة بها بصيص من حيـاة . فوجده الارقش أبو براقيش في الصباح الباكر بين الثمام والضغـة والحلـة والاسليح والغمضة والعضاه (1) .

فما كان من صاحبنا الثور الا ان وضعه بين روقيه واخترق بـه السبخـة جذلان يملأ الزهو جنبيه الى أن انتهى الى المثورة . ودار بين الاخـوة وقطعـة الأسد بين قواتمهم حوار طويل نقتصر على المهم منه ... على ما قل ودل ..

الحـــوار :

قال الأسود : هذا عدونا ابن عدونا من يوم السفينة ومن ايقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ نجا من المصائب وسلم من المكائد . لقد تضاغنا مع السباع

---

(1) كل هذه اسماء نباتات فارسية شاذة في خضرائنا الخصبـة المعطـاء فهي نباتات صحراوية اثبتها المترجم بدافع الامـانة المحض ويمكـن للقـارىء الاستغناء عن التثبت من وجودها في المنجد .. فهي فيه .

وشابت فى الضغن والاحقاد قرون آبائنا وأجدادنا فلم يخلصنا من ضرسهم وظلفهم والمخالب الا نوح عليه ألفا سلام وهؤلاء الصيادون جازاهم الله خيرا على حسن الصنيع ۰۰۰ ووقانا من شرهم آمين ۰

وقال الابيض : انا على فكرة أخى ۰۰ الثور يحمى انفه بروقيه ۰۰۰ لكن من يحمينا من هذا اذا إشتد ساعده وطالت انيابه ؟ سيكفر صنيع من احسن اليه فوالله والله ۰۰۰ واللازمة والحرام لو نزحت البحار وكنست القفار ما وجدت فى الغاب اغدر من هذه القطعة من اللحم ۰۰۰

فأردف الأسود محذرا : اياك ۰۰۰ اياك ۰۰۰ الحية تدور وتدور لكنها الى الرحى ترجع ۰۰۰ والشبل هذا من ذاك الأسد ۰

فثارتْ ثائرة الثور أبو براقش وقال والتيه ينفخ صدره وشدقيه : الخضوع عند الحاجة من الرجولة وما أرانى الا أقربكما الى الحكمة والسداد ۰ لقد حسبت لكل شىء حسابا بالمسطرة والكمباص ۰ هذا آخر السباع فى الغاب ۰۰۰ يأكلنى سبع ولا يقتنصنى صائد ۰۰۰ ومن ادراكما ۰۰۰ لعله المهدى الذى ننتظر ۰۰ لقد قهرنا القناص وقطعوا دابر جد أمنا وما بقى حولنا الا الجراد والسنانير والجرذان والعقارب والحيات ۰۰ عزل نحن ۰۰ عزل ۰۰ وسنبقى عزلا ان لم ننسب هذا الأسيد الينا وندمجه فى فصيلتنا ۰ ورب أخ لم تلده أمك يا أخى ۰۰۰ رب أخ لم ينجبه أبوك ۰۰۰

فقال الأسود متحاملا : الحمق غريزة فيك دواؤها الموت ۰ لقد كسد رأيك وفسد عقلك ۰ ولا توجس خيفة من هذا الشىء الذى بين يديك ؟ ان فرائصى لترتعد من الخوف ۰۰۰ اياك اياك ! ! سيكون لهذا الشبل فى امرنا مزاعم ومطامع ۰۰۰

فأجاب الارقش فى خبث : الاحمق أنت ۰۰۰ سوادك يظلم الحكمة امام عينيك ۰ أراك كثير الكلام سريع الحكم راكبا رأسك ۰ وما ضر ۰۰۰ نعم ما ضر لو تزعمنا وهو آخر السباع ؟ فهو سيفنا المسلول على الاعداء ۰۰ اما رايتهم حولنا يترصدون ؟ انظر الى هذا الملاك الوديع ۰۰۰ انه من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح ۰۰۰ أقلبك من حجر ؟

فقال الأسود متثائبا وكأنما أضجرته مقالة أخيه الارقش : حمقك من طول لحيتك ۰۰ نعم ۰۰۰ من طول لحيتك ۰۰۰ سلنى لماذا ؟

فسأله الارقش : لماذا برب الثيران ؟ تكلم ۰۰۰ وإن كنت أعلم مسبقا انك اذا قلت افحشت وان سئلت بخلت وان سألت ألحت وان تكلمت تجشأت وان قيل لك لم تفقه وان جلست قعدت (أوقعت اذا وجب الادغام) وان نهضت

ضرطت (أو ضرت اذا وجب الادغام (١) ٠٠٠) تكلم يا سى طبالة وأوجز ٠

فأردف الأسود فى لوم : لتكن أمه اذا شئت وأباه ٠٠٠ لكن اعلم ان عينيه تضيئان بالليل ٠٠٠ فمن منقذك منه يوم الكسب وقد تضاءلت الضباع ؟٠٠ الأسد اذا جاع كفر ٠

فقاطعه الارقش فى حدة : الكلام عن لحيتى لا عن عينيه وإليه الضبع وزمارة الصرار ٠ قل ٠٠٠ ما دخل طول اللحية فى حماقتى ؟

فأجاب الأسود فى لهجة المعلم : الا فاعلم ان مخرج اللحية من الدماغ ٠ فمن أفرط طول لحيته قل دماغه ومن قل دماغه قل عقله ومن قل عقله فهو أحمق٠ والعبرة يا أحمق فى مخرج الدماغ ٠

فسكت الارقش وكأنه يستنجد بأخيه الأبيض ٠٠٠ لكن الأبيض سكيت من طبعه ٠ فقد ظل صامتا وابتسامة عريضة على شفتيه ٠ واطرق الارقش طويلا ثم صاح فى وجه الاسود ٠

قال الارقش لأخيه : نعم سأكون أمه وأباه ٠٠ سأكفله ٠٠٠ مسكين هذا الأسيد ٠٠٠ تلده أمه قطعة لحم وتستمر تحرسه ثلاثة ايام ثم يأتى أبوه فينفخ فيه فتتفرج اعضاؤه وتتشكل صورته ثم ترضعه وتستمر عيناه مغلوقتين سبعة ايام ثم تفتح ويقيم على تلك الحال بين أبيه وأمه الى ستة اشهر ٠٠٠

وهنا قاطعه الابيض مستخفا ٠٠٠ وعندها يتكلف الكسب ويسعى ٠٠٠ لكن الارقش تابع فى غير اكتراث كأن لم يسمع ما قاله الابيض ٠

قال : الأسد من معدن شريف ٠٠٠ أبى النفس لا يعاود فريسته ولا يأكل من فريسة غيره ٠٠

فقال الأبيض : لكنه متى أكل نهش نهشا ٠٠٠ وما ينفعك إن قض عليك ان يعاودك أو لم يعاودك ؟

فلم يجب الارقش عن سؤال أخيه بل قال متحمسا : سينهش أعداءنا نهشا ٠٠٠ نحن فى حاجة الى ساعده الى فكيه الى عينيه الى دماغه الى عبقريته ٠ من يقدم على الامور غير الأسد ؟ من يقينا غوائل الصيادين غيره ؟ من ؟

---

(١) الملاحظة للمؤلف ٠٠ الادغام فى الفارسية ايضا له قواعده وأصوله ٠ كذا فى الأصل المخطوط الذى بين يدينا ٠ ومن رأى المترجم انه يصح الوجهان والله اعلم ٠ اما الضراط والضريط والضرط والضرط فاخراج ريح من الدبر مع صوت ٠

فقال الأبيض متسامحا : لا تصرخ هكذا كالمعتوه ... سنحنو على أسيدك يا أبا براقش ... لكن .. أوصيك أوصيك ... كن ثورة يوم يجد الجد .. وتحيض اذا أردت أن تسلم .

النار تأكل بعضها : (1)

كبر الأسد أيها الملك العظيم وبلغ أشده وصال فى البطاح وجال وألب قلوب الدواب جميعها الساعية منها والزاحفة على العدو المشترك فكانت كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . كان الأسد يتهمبس فى البقاع ويشم الصيادين شما فلا يلبث أن يوقع بهم . والحيلة أيها الملك العظيم من فوائد الآراء المحكمة السديدة . وهى حسنة ما لم يستبح بها محظور فللضرورة احكام والضرورات تبيح المحظورات احيانا ... حتى قيل فى كل الاصقاع انه أباد القناصين عن آخرهم اذا سمع احدهم وهو بآخر رمق يقول : « اللهم خفف خبزتى ... فهى فى هذا البلد عبء ... اشهد أن أبا العباس هذا (2) اشجع من عرف الزمان من السباع » وقضى نحبه وهو يلهج بذكر الأسد وبنوه بشأنه ... وكان رحمه الله برحمة الصيادين آخر المقيمين .

وساد السلام ارجاء المثورة ... مثورة الأسد ... واستأسد الثيران واستأسد كل ذى ناب وذى مخلب وكان الأسد يحفزهم ويستنهض الهمم .. ونزل المثل السائر فى زماننا فى ذلك الظرف بالذات فقيل : « إن البغاث بارضنا يستنسر » كان السلام كالماء القراح كالعسل المصفى لا شائبة فيه ولا كدر .

لكن حلت بالقوم عين ... والعين أيها الملك العظيم حق حق ... فما لبث الخصام ان فرق بين اخوان الصفاء وخلان الود والوفاء اذ تسرب الحقد الى قلوب الثيران فكادوا المكائد ودسوا الدسائس وحفر كل أخ لأخيه جبا ليوقعه فيه .

فاذا الأسد من أمرهم فى حيرة ... كان يعتقد ــ وهو طيب القلب سليم النوايا ــ انهم اذا اتحدوا كانوا قرة العين وجلاء الصدر ... لكن ... العين

---

(1) رأى المترجم ان يقتصر على شطر المثل السائر .. أما العجز وهو « إن لم تجد ما تأكله » فلا يضيف شيئا الى المعنى المقصود ... ولعله من صنع الناسخ لا من يراع بيدبا سامح الله الناسخين ...

(2) لا ننس ان كليلة ودمنة ترجم الى العربية فى صدر الدولة العباسية ...

حق · فقد عم الشغب وكانت الفتنة والعياذ بالله · فثار الأسد واستشاط غضبا · وصيد الطير بالطير ··· والناس أيها الملك العظيم اتباع لمن غلب ·

كان الأبيض يدعى ان الأسود فى الظهيرة كالعلم المنشور على الوهاد · وان سواده منارة لكل صائد وهدف لكل مناوش ··· مرمى متاح مبين · فاغتيل الأسود فى النهار المبصر ·

وكان الأسود يدعى ان الأبيض ركيك اللون ـ كان الأسود يكره اللبن ـ كالنبراس فى الليل ينير السبيل · فاغتيل الأبيض فى صخب الدهماء ··· ليلا ··· فى سكون مقيم ·

وصاح صائح فى الغاب يبشر برجم التمثال اللعين وقيل كفانا الله شر الاثنين ··· شر الطرفين ··· شر النقيضين · وخير الامور اوسطها · الارقش ضالتنا ··· والأسد ·

ومن جرائر الثورين المستبدين الضالين انهما لم يجمعا القوم قط على أمر لاستشارة واستخارة ··· بدعوى انهما اذا استشارا الواحد من القوم دون ان يعلم الآخر لا يقع بين الواحد والآخر مناقشة ولا جدال فالمحاورة فى رأيهما تذهب اصابة الراى · لأن من طباع المشتركين فى الأمر (أو الاشتراكيين ان اردنا الاختصار ومسايرة العصر باستعمال مصطلحاته) التنافس والطعن فى بعضهم البعض · وربما سبق الواحد الآخر بالراى السديد فحسده القوم وعارضوه ·

كان الأبيض يقول : فى اجتماعكم للمشورة تعريض السر للاشاعة ·

وكان الأسود يقول : اذا اذيع السر لم اقدر على مقابلة من اذاعه (I) للابهام ·

ويقول الأبيض : ان عاقبتكم جميعا عاقبتكم بذنب واحد منكم · وان عفوت عنكم الحقت الجانى بمن لا ذنب له · لذلك تروننى لا أجمعكم على أمر استشيركم فيه لانكم من عباد الاشاعة ·

ويقول الأسود : انى لا استشير الا من شبع وارتوى فاملأوا بطونكم تكتمل عقولكم وعندها ··· أنا لها ···

(I) الاذاعة هنا بمعنى الاشاعة ··· اما اذاعة شارع الحرية فأمر آخر ·

ويقول الأبيض : وكيف يستوى العاقل والجاهل والسفيه والرشيد ٠٠٠ وما حكاية الوحدة هذه ؟ كيف تريدون أن يؤلف بين الضب والنون ؟

وهكذا اتحد الخصمان بالتقاء ساكنين ٠ حذف السابق ولم يصلح اللاحق فحذف بدوره ٠٠٠ فلا ساكن ولا علة ٠

وبقى الارقش وحده فى مثورة الأسد ٠٠٠

خاتمة باب الأسد والثور :

من قال من الثيران :

« يعلم الله أنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض » ؟ لم يجب بيدبا عن هذا السؤال أيها الملك العظيم لكنه ختم مقالته بهذه السطور :

« كانوا ثلاثة ثور لا ثور وثور نصف ثور وثور ثور كالبشر تماما منهم الرجال اشباه الرجال والرجال انصاف الرجال والرجال الرجال » ٠

وبقى الأسد فى مأسدة الثيران عبوسا شموسا مصلخدا ٠ عيناه فى الدجى كجمر الغضى ٠٠٠ يديل بانيابه الحداد كانها الخناجر المصلتة على رؤوس الزافرين الناعبين المشاغبين ٠٠٠ عتيد عتيد ٠٠٠ الأسد الأسد ٠٠٠ لا يقضى الا بالعدل ولا يحكم الا بالسنة ٠٠٠

فلم تناحرت ابقار الجنة ؟

ولم أحمرت مثورة الأسد ؟

(انقضى باب الأسد والثور)

(ويتبعه بحول الله وعونه فى كتاب كليلة ودمنة « باب الفحص عن أمر دمنة »)

م٠ ف٠

ـ المنزه ـ

ليلة 17 الى صباح 70/4/18

المـــــاء

شعر : فضيلة الشابي

رَأيتُ المَـــاءَ في الليلْ
يعــارضُ جفــافَ العَــالَمْ
ينْسَابْ ،
ينْسَابُ كـالفـرْحَـهْ
يـَرقُصُ في العُمْق
يُحْبِلُ الحَيَـــاةْ
يتَحَدّى الويْـــلْ
رأيتُ المَـــاء فِي اللّيْلْ
صَوْتُـهُ
وَشَوْشَةٌ
هَمْسَةٌ
لُـغَـةٌ
لُغَـة معْطَــاءْ
وَثبةٌ فِي الضّبَـــاءْ
تَـزرع البرتقَــالْ
في أعيـن الاجيـــالْ
وَتَبْعَثُ فَوقَ نَــافِذَتِي الحَقِيقَهْ

رأيتُ المَـــاء فِي الليـل
يتَحَـدّى الـوَيْــلْ ...

ف. ش.

الحرية الانسانية في التفكير الاسلامي

I ـ الحريـة الانسـانيـة عنـد المتكلميـن
(الجهميـة ـ المعتـزلـة ـ الأشعريـة)

بقلم : عبد المجيد الغنوشي

أريد أن أركز بحثي في هذا المقال على مشكل الحرية الانسانية وعلى ما حف به من خصومات ومناقشات حادة بين أشهر المدارس الكلامية وبعض فلاسفة الاسلام يرجع جلها الى خطورة الموضوع وشدة علاقته بالمنزلة الانسانية وكرامتها فضلا عن قلة وضوحه في النصوص الشرعية التي تؤكد حينا الحرية الانسانية وحينا تنفيها جاعلة الانسان أداة تنفيذ لقضاء الله وحكمه . ومن البين أن المسألة الأخلاقية وما يترتب عنها من ثواب وعقاب منوطة بمشكل الحرية أو على الأصح باقرارها كبعد من ابعاد انسانيتنا ـ ولعلني لم أخطىء ولم أشط إن قلت إن الحرية اصبحت مشكلا معتاصا أمام الفكر الانساني إثر ورود الشرائع التي اعتبرت الانسان « طبيعة » أي « إنية » براها الله وزج بها في الوجود حيث كل ما يعتريها ويعرض لها « محصى في كتاب مبين » . ألم تكن الحرية لتقر للانسان بصفة « انطولوجية » وبدون إشكال لو ظل « المحرك الأول » غائبا عن الوجود والموجودات مثلما كان عند أرسطو ؟ أفلا تكون الحرية ماهية وجود الانسان لو قضى على مفهوم « الطبيعة الانسانية » وما يتضمنه من وجود موجود متعال (transcendant) مدبر للكون خالق الماهيات مثلما قضى عليه « نيتشه » والوجوديون الملحدون ؟ ولكن ما لنا وهذه التساؤلات ما دامت هذه المسألية (problématique) لم توجد ولن توجد في إطار ديني وما دمنا نرمي الى فحص المشكلة كما تناولها مفكرون اسلاميون اتخذوا الدين الاسلامي قاعدة واساسا لتفكيرهم الفلسفي وعمدوا الى الفلسفة الاغريقية لتفهم مواضيعها وبسطها وتنميتها بالروحانية والعقلانية اللتين زودهم بهما الدين الاسلامي وتعاليم بيئتهم وثقافتهم الاشراقية (I) .

لقد انطلق اذا التفكير الفلسفي الاسلامي (2) بصفة عامة من النظر في النصوص الشرعية ومن محاولات الاسلاميين انفسهم فمن تلك المناقضات

(antinomies) التى تعترى العقل إثر درسه لقضايا شرعية معقدة كمشكلة الحرية الانسانية التى نحن بصددها ـ قلنا انه لو تصفحنا الشريعة لوجدنا فيها آيات تقر بالحرية للانسان فى خلق افعاله وبناء وجوده محملة إياه بذلك مسؤولية مطلقة ، بينما هناك آيات تنفى هذا المعنى وتجعل من الانسان منفذا لقضاء الله ومشيئته ـ ومن الغريب انك تجد فى بعض الآيات هذين المعنيين جنبا لجنب مثل قوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ولذا فمن البين أن يعم الالتباس (ambiguité) العقول ويضطرب الاسلاميون فى هذه النازلة وينقسمون الى فرق شتى ـ وقد لا نخطىء ان قلنا ان اول من جابه المذهب القدرى (3) الذى يجرد الانسان من حرية الاختيار والخلق هم مسلمو سوريا (4) الذين كانوا يعيشون فى تفاهم ووئام وثيقين مع النصارى ـ زد على ذلك أن المسألة التى كانت قائمة إذذاك والتى تصدى علماء النصرانية الى حلها هى مسألة الحرية والجبر فحملت مناقشاتهم المسلمين على الاهتمام بهذا الموضوع والتفرغ له . فعالجه المسلمون فى دمشق التى كانت مركزا للثقافة الاسلامية أيام الأمويين ومنها تسرب الى الأصقاع الاسلامية الأخرى حيث تبلور واتخذت له حلول عديدة سنحاول عرض اهمها بحسب الجهد والاستطاعة معتمدين فى ذلك كله على صحيح الينابيع ودقيق المأثور .

ـ الجهمية ـ

إن أول فرقة كلامية نفت الحرية الانسانية هى الجبرية والجبر كما يقول أبو الفتح عبد الكريم الشهرستانى هو « نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته الى الرب تعالى » (5) وقد اشتهر جهم بن صفوان بانتسابه الى الجبرية الخالصة وبقوله بقضاء الله المطلق المحدث لأفعال العباد الخالق لمشيئتهم المسير لأعمالهم فالانسان حسب زعمه « ليس يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور فى افعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا إختيار وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات كما يقال اثمرت الشجرة وجرى الماء وتحرك الحجر وطلعت الشمس وغربت ... الى غير ذلك » (6) . لا شك ان هذا القول فى غاية السقوط إذ ليس يضاد التكليف الأخلاقى ويجعله مستحيلا فحسب بل ينال من عدالة الله خاصة (7) غير اننا لو تثبتنا الامر وأنعمنا النظر والتفكير فيه لما سمحنا لأنفسنا بأن نلقى على عاتق الانسانية مسؤولية أفعال ما شاءتها وما اختارتها وإنما شاءها واختارها لها الله وكلفها القيام بها . وبناء على ذلك هل سيكون الله والحال تلك عادلا إن أثاب أو عاقب إنسانا قد قدر له اعماله وجبره على فعلها ؟ وهل يكون للقيم الاخلاقية معنى فى هذا الوجود ؟ أليست تكون متساوية فيما بينها ومساوية

لكل الشرور ما دام الجزاء على الأعمال مرتبطا بمشيئة الله وحكمه وليس نتيجة حتمية لاختيار الانسان متأتية عن « قانون اللعب »(La règle du jeu)المعروف لدى كل لاعب قبل شروعه فى اللعب ــ واذا تبين لنا هذا الخلل المشاع فى هذه النظرية فمن اليسير أن نفهم رد الفعل الذى قامت به المعتزلة مجابهة الجهمية مطيحة بأقوال الجبرية وبمقتضاه أقرت بالحرية الانسانية المطلقة مكلفة الانسان خلق افعاله محملة إياه مسؤوليته وما ينتج عنها من خير وشر وما تستلزمه من ثواب أو عقاب ٠

ـ المعتـــزلــة ـ

ومها لا شك فيه ان هذا الموقف الذى أختاره لنفسه واصل بن عطاء ومن اقتفى اثره من اعلام الاعتزال ليس فيه ما يدهشنا إن كنا نعلم أن التسمية التى أرادها المعتزلة أن تكون علامتهم وأصل نظريتهم تتلخص فى كلمتين موجزتين هما « العدل والتوحيد » أى الاقرار بعـدالة اللـه والاعتراف بوحدانيته ــ ولا يخفى علينا ما لهاتين الكلمتين من معان ضمنية ومن مفهوم واســع قد مكـن المعتزلة من استخراج وعرض نظريتهم الفلسفية وكذلك اللاهوتية ٠ إن قولهم بعدالة الله وجعلها أساسا ونقطة إنطلاق لتفكيرهم هو نفى صريح للجور عن الله وعزم على تنزيهه منه ومراد به أولا وبالذات ان الله خلق الانسان حـرا وكلفه أخلاقيا ــ فاذا تدبر الانسان فى أمره وبنى وجوده وفقـا للمقتضيـات العقلانية العملية وأتى الحسنى فالله يجازيه على ما قدم من حسنى واما اذا اختار الضلال فالله مجازيه لا محالة على ما آختاره لنفسه وبذلك تتجلى العدالة الالاهية فى اسمى معانيها ويكون الانسان حرا فى تصرفاته وجميع اعماله ٠

وقد ذهب المعتزلة فى كلامهم عن العدالة الالاهية مذهبا بعيدا حتى انهم قالوا بان العدالة هى عين الذات الالاهية وبان الله ليس فى مقـدوره ولا فى استطاعته أن يكون غير عادل فعدله أمر ضرورى لا مناص له منه واستشهدوا بكثير من الآيات ليدعموا موقفهم كقوله تعالى : « ما ربك بظلام للعبيد » وقال الشهرستانى متحدثا عن المعتزلة ما يلى : « واتفقوا (أى المعتزلة) على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا فى الدار الآخرة والرب تعالى منزه أن يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية » (8)٠

إن نظرية المعتزلة بشأن الحرية الانسانية نظرية منطقية الى حد بعيد كمـا رأينا فنحن نعدها مكتسبا إنسانيا من حيث « الكائنية » (l'ontologie) (9) غير انها متطرفة مشطة فهى لا تعبأ بالظروف ولا تحسب لها حسابها ٠ فاذا كان من السهل الكلام عن الحرية وطرقها طرقا نظريا محضا فليس الامر كذلك اذا

ما صادمنا الواقع بعراقيله ومشاكله لأننا إذذاك نرجع الى انفسنا ونفهم حقيقتنا وحقيقة حريتنا فتجدنا محدودين وتجد حريتنا التى أطنبت المعتزلة القول فيها هراء أكثر منها حقيقة · وما دليل المعتزلة على قولهم بهذه الحرية الانسانية المطلقة ؟ أعزمهم على إثبات الكرامة الانسانية وتدعيمها على مصادرة أساسية (postulat fondamontal) (١٠) أعنى التسليم بالحرية ليتسنى للانسان القيام بالأمر الأخلاقى (l'imperatif moral) ؟ أم التجربة الانسانية نفسها هى التى بعثت بهم الى الاقرار بالحرية المطلقة والاطاحة بالجبرية الخالصة ؟ فان كان الوازع الأخلاقى هو الذى حملهم على ذلك فذلك معقول ومنطقى كما قلنا ولكن ليس يلزمهم أن يقولوا بحرية مطلقة ويغضوا الطرف عن الواقع و « قوة الأشياء » المجبرة التى تحد كثيرا من حريتنا · وأما اذا كانت التجربة الوجودية نفسها هى التى أدت بهم الى معتقدهم فلقد اسقطوا جانبا هاما من تلك التجربة الانسانية وغفلوا عن تلك الصعوبات وتلك الحوادث المفجعة التى نواجهها دوما اثناء مسيرتنا فى طريق الوجود والتى كثيرا ما تعوقنا عن انجاز نزوعاتنا الوجودية (projets existentiels) ولعل ذلك الغلو الذى أصطبغت به كلتا النظريتين أعنى نظرية الجهمية فى نفيها للحرية الانسانية على الاطلاق ونظرية المعتزلة التى أقرت الحرية المطلقة هو الذى بعث بأبى الحسن الأشعرى لمعالجة المسألة ولمحاولة حلها حلا وسطا بادخاله عنصرا جديدا يعرف بالكسب والذى هو حسب صاحبه كفيل برفع النزاع بين الخصوم المتناحرين ازاء قضية الجبر والاختيار ـ ولكن كيف تتمثل هذه النظرية التى ارتضاها أهل السنة لأنفسهم وهل نجحوا حقا فى بادرة التوفيق التى راموا سنها ؟

ـ الأشعرية ـ

لا يخفى على أحد أن نظرية « الكسب » التى قال بها الأشعرى تتسم بغموض شديد حتى انه قيل : « أخفى من الكسب عند الأشعرى » وجملة القول ان الأشعرى لما رأى المعتزلة تقول بقدرة الانسان على خلق افعاله وبجعل الحرية الانسانية جزء من الكيان الانسانى خاف من ان ينال من التعالى الالاهى (la transcendance divine) ومن إنفراد الرب بالخلق والقدرة وخشى من أن يشارك الانسان الالاه فى صفاته الذاتية بحيث يكون الخالق والمخلوق فى رتبة واحدة فقال بان الخلق مقتصر على الله فحسب وبأننا نشاء بمشيئة الله « فاخبر أنا لا نشاء شيئا إلا وقد شاء الله أن نشاءه » (١١) « وانه لا يكون فى الأرض شىء من خير وشر إلا ما شاء الله وان الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل وأن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله الله ولا نستغنى عن الله ولا نقدر على الخروج من علم الله عز وجل وانه لا خالق إلا الله وان اعمال العباد مخلوقة لله مقدورة كما قال (خلقكم وما تعلمون) وان العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئا

وهم يخلقون كما قال : (هل من خالق غير الله) ٠٠٠ (12) فاذا كان الله يخلق كل شيء البشر وما يعملون ويخلق الفسق والهداية والخير والشر فما دور الانسان اذا في هذا الوجود ؟ يعتقد الأشعري أن الله وإن جعل الانسان تحت سلطته وإرادته فلقد جعل له قدرة على الكسب دون الاحداث يكفيك بأن الله أثبت للانسان إرادة يستطيع ان يختار بها ما قد خلقه الله له من اعمال فاذا ما اقترنت إرادتنا المخلوقة لله بارادة الله الخالقة وقمنا بعمل ما صار ذلك العمل كسبا لنا ولذلك يعتبر الفعل الارادى عملا بشريا يترتب عليه الكسب ، ويمكننا القول بصفة اوضح ان العناية الالاهية هى التى ترتب الأمور واعمال البشر بحيث يتسنى للانسان كلما اراد القيام بعمل ما أن يجد ما يساعده على انجازه فاذا انجزه اكتسبه وحق له أن يجازى عليه خيرا أم شرا ٠ ويقول أبو الحسن الأشعري فى هذا المضمار : « فان قال قائل اذا كان كسب الانسان خلقا فما انكرت أن يكون له خالقا قيل له لم أقل ان كسبى خلق لى فيلزمنى أن أكون له خالقا وانما قلت خلق لغيرى فكيف يلزمنى اذا كان خلقا لغيرى أن أكون له خالقا ولو كان كسبى اذا كان خلقا لله تعالى كنت له خالقا لكانت حركة المتحرك باضطرار اذا كانت خلقا لله تعالى كان بها متحركا ، فلما لم يجز ذلك لأنه خلقها حركة لغيره لم يلزمنا ما قالوه لأن كسبنا خلق لغيرنا » (13) ٠
وجملة القول ان هذه النظرية التى ارادها الأشعري حلا وسطا بين نظرية الجهمية ونظرية المعتزلة والتى ضمنها كفيلة بحل المشكلة بدون حيف فى حق الله وحق الانسان لا تسلم بالحرية الانسانية رغم قولها بالارادة الانسانية إذ ما دام الله هو الخالق الأوحد لأعمال البشر وما دام هو الذى يرتبها وينسقها ويهبنا من لدنه القدرة على الفعل فى اللحظة التى نريدها فيها لتقترن به قدرتنا المخلوقة ولنكتسبه فنحن لا محالة مجبورون على الفعل مضطرون إليه ـ ثم لو فرضنا مثلا أن الله هو الذى خلق فى نفسى ارادة القراءة والقدرة عليها فى الوقت الذى اردته بارادته ورتب الامور المرادة فى نفس ذلك الوقت وقرن ارادتى وقدرتى المخلوقتين له بارادته وقدرته وقمت بالقراءة فى الوقت الذى خلقه لى فكيف والحال تلك يمكننى أن اعتقد أن كسبى حر ؟ اللهم إلا اذا شوشت المفاهيم المعهودة وأردت بالحرية الجبر وبارادتى ارادة الله وبقدرتى وعزمى قدرته وعزمه ٠ حقا لقد حاول الأشعري أن يأتى بحل لهذه المسألة وأن يجعل الانسان بين بين الحرية المطلقة وبين الجبر المحض فلا هو مختار مطلق ولا هو مجبر ملزم وجعل له إرادة ولكنها إرادة مكبلة بقيود شتى إرادة السجين فى سجنه ! ولكن لو فرضنا ان الأشعري لم يرد ولم يقصد ذلك وإنما أراد ان الله خلق الطبيعة الانسانية وكل ما تتضمنه من افعال وصفات وترك الانسان وشأنه يفعل ما يشاء ضمن طبيعته المخلوقة له التى حددها الله تحديدا أزليا فهل ذلك منج لنظرية الأشعري ومقر للحرية الانسانية ؟ ما نظن

ذلك . يكفينا ان نضع مفهوم الطبيعة الانسانية حتى تتلاشى الحرية وتغادر الوجود كما بين ذلك الوجوديون وأطنبوا فيه القول : (ان تقدمت الماهية على الوجود فالانسان مجبور ضرورة) . فلا سبيل اذا من تزويد نظرية الأشعرى وشدها بأعمدة قد تضربها وتشوهها اكثر مما تدعمها وذلك مـا ذهب اليـه وا أسفاه ! جل الأشاعرة فى تأويلهم قول استاذهم . فهل أفلح كل من لسان الدين بن الخطيب وأبو المعالى الجوينى والباقلانى وأبو حامد الغزالى فى محاولاتهم لشرح كسب الأشعرى ؟ كلا ! وحسبك قول الغزالى دليلا على تهافت النظرية وميوعتها . يقول أبو حامد : « الله تعالى خلق القدرة والمقدورة جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا ... فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب وأما الحركة فخلق للرب ووصف للعبد وكسب له » (14) وكذلك : « ان فعل العبد وان كان كسبا له لا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبارادته ومشيئته ومنه الشر والخير والنفع والضر والاسلام والكفر والعـرف والنكـر ... » (14) وأنا لنتفق تمام الاتفاق مع الدكتور زكى مبارك فيما قاله متحدثا عن نظرية الكسب : « وأنا لا أفهم ما هو هذا الكسب الذى يقره اهل السنـة ويتـابعهم الغزالى فى اقراره ، فهم لا يقولون بأن العبد مضطر وإلا كانوا جبرية والجبرية فى رأيهم خاطئون . ولا يقولون بأنه مختار وإلا كانوا معتزلة وهم قد سلقوا المعتزلة بألسنة حداد . فلم يبق إلا ان العبد لا هو حـر ولا هو مختـار وإنما مكتسب : وهـذا الكسب ايضـا مـراد لله . إذن فمـا الـذى بقـى للعبـد المسكين ؟ » (15) .

ع. غ.

(يتبـع)

القسـم الثـانى

2 ـ الحرية الانسانية عند فلاسفة الاسلام
(الفـارابى ـ ابن سينـا ـ ابن رشـد)

ـ المـراجـع والمـلاحظـات ـ

(1) سأتفرغ فى البحوث القادمة لبيان خصائص الفلسفة الاسلامية واصالتها ولاظهار نوعية نفسها الذى لم يقر به كثير من مستشرقى وفلاسفة أروبا طوال القرن التاسع عشر من أمثال (Victor cousin) الذى ادعى فى كتابه :
cours d'histoire de la philosophie Tome I , pages 48 49. Paris 1841.
أن الدين الاسلامى وتعاليمه تتنافى مع التفكير الحر وتصد عن كل ابتكار سواء فى الميدان الفلسفى أو الميدان العلمى · وقد طغت الفكرة على كثير من المستشرقين كـ(Léon Gauthier et Ernest Renan) اللذين بتأويلاتهما المركزة على العنصرية قالا بان العقل السـامى دون العقـل الآرى وبان فلسفة الاسلاميين لم تكن إلا صورة مشوهة للفلسفة اليونانية ، انظر :

1. Léon Gauthier : L'esprit sémitique et l'esprit aryen - Paris 1923 p p. 66 - 67.
2. Ernest Renan : L'islamisme et la science, voir Discours et conférences. Paris 1887 - p. 377.
3. Ernest Renan : Averroes et l'Averroisme. (Préface) dernière édition. Calmann Levy - Tome III des œuvres complètes.

ولست أغالى إن قلت إن هذه الأفكار المسمومة البغيضـة قد تسـربت الى طلبتنا فى كلية الآداب (قسم الفلسفة) من افواه بعض الأساتذة الأجانب الذين يسيرون على غرار المستشرقين الآنف ذكرهم والذين ينفون وجود فلسفة إسلامية (واعنى بالاسلام حضارة لا دينا) ذات نوعية خاصة بها · ومن جراء هذا التأثير السىء لمسنا إستئصالا (déracinement) مقلقا عند الشباب التونسى الدارس للفلسفة ·

(2) عندما نقول التفكير الفلسفى الاسلامى فنحن نعنى بـذلك كل المظـاهر الفكرية الاسلامية بما فيها من تصوف وكلام وفلسفة وهذه ليست إلا جزء محدودا من ذلك التفكير · فالغلط كل الغلط هو أن يقتصر الناظر على تفكير الفلاسفة الاسلاميين ويغض الطرف عما هو اعمق منه بل أطـرف والذى يتمثل خاصة فى تفكير الصوفية من روحانيين وعقلانيين ·

(3) القدر : معنى ملتبس ذو مفهومين متضادين متناقضين ـ فان استعملته الأشعرية فالمراد به خلق الله للأفعال حسب مشيئته وقدرته وإرادته · واما اذا ذكرته المعتزلة فمفاده قدرة الانسان على خلق افعاله بكامل الحرية ـ راجع الشهرستانى : (الملل والنحل) وكذلك : الموسوعة الاسلامية : النص الفرنسى) ·

(4) راجع : IGor Goldziher : Le dogme et la loi en islam page 75.

(5) انظر الى كتاب : (الملـل والنحـل : الشهرستـانى) ـ الجزء الأول ـ ص 108 ـ 109 ـ طبعة بغداد .

(6) نفس المصدر : ص 110 ـ 111 .

(7) لقد دهشنا لما وجدنا صديقنا العزيز وزميلنا الاستاذ المحجوب بن ميلاد يتغنى بالجهمية فى كتابه : « تحريك السواكن » (كتاب البعث ـ تونس ـ ص 134 ـ 135) قائلا : « ليس هناك مؤمن صادق إلا وفيه « وترجهمى » يريد أن يرن رنينه « وراء المعقول » فى بحر الوجود المطلق وخضم الأشواق التائهة على متن كل « زورق نشـوان » . » فان كانت أغنيـة الانسـان الوجودية فى رنين ذلك الوتر **الجهمى** فيا لتعاسة الانسان !.

(8) انظر الى كتاب : (الملل والنحل : الشهرستانى) ص 55 ـ 56 .

(9) (الكائنية من الكائن) TO ON (باليونانية) L'ETRE ـ الكائنية هى ترجمتنا لكلمة ONTOLOGIE اعنى كل ما يرتبط بالكائن إرتباطا ضروريا بحيث لا يكون للكائن كيان إلا به .

(10) (المصادرة الأساسية) : POSTULAT ـ لقد عمد KANT فى كتابه : critique de la raison pratique الى نفس الطـريقة لاثبـات الحـرية الانسانية .

(11) راجع : (الابانة عن أصول الديانة) ص 7 ـ طبعة مصر ـ سنة 1348 هـ.

(12) نفس المصدر : ص 9 .

(13) راجع : كتاب : (اللمع فى الرد على اهل الزيغ والبدع) ص 43 ـ 44 ـ طبعة بيروت 1952 ـ تحقيق Mc. carthy .

(14) (إحياء علوم الدين : الغزالى) ـ الجزء الاول ـ ص 120 .

(15) (الأخلاق عند الغزالى : زكى مبارك) ص 120 ـ 121 ـ طبعة مصر 1968 .

خطبة حمارنا

قصة ، بقلم : نور الدين بن بلقاسم

باتت أمي ساهرة . كانت عيناها محمرتين تدمعان من طول السهر ... استبد التفكير بها استبدادا فنحل جسم أمي . كانت تفكر في الغد المجهول ، وثقل الغد يقلقها . القحط الذى أصاب شياهنا ملأها ذعرا ... فكانت نظراتها نحوى يملؤها الغيظ ، ويملؤها البغض أحيانا . أمي تكرهني ، لأنني وقفت منها موقفا سلبيا ، عرفت أمي أنني مريض بآفة الجبن ، فحرضت ذات يوم كلب الجيران علي وأنا غافل . مزق الكلب شفتي فتركني أضحك للريح . وقطع لساني فازددت صمتا . لم أستطع منذ ذلك اليوم أن أخاطب الناس الا بسبابتي أو بايماءة من رأسي . كنت أشير خلسة لأنني أخاف ، ومن كثرة صمتي أصبح الخوف جبلة في نفسي .. لذلك كانت أمي تمقتني ..

طالما انتصب خيال الغد أمام أمي . فرأته ثقيلا ثقيلا ... شبهت أمي ثقل الغد بخطبة حمارنا ، عندما انتصب ذات يوم خطيبا بين شياهنا ، وهي تعاني الانتظار وسط حقلنا المجدب ...

كان حمارنا يخطب معجبا بخياله الطويل ، كاعجاب ديكنا « شهلول » بنفسه كل صباح عندما يواقع إحدى زوجاته . وهو معجب بذلاقة لسانه ، فدفعه هذا التيه الى أن يطمئن نعاجنا وهي خماص في حقلنا يترصدها الجو عموتا ، متفوها نهيقا : بأن هذا القحط الحائق بها ، هو خير وأي خير ، لأنه مملوء بالأمل ـ أمل الانتظار ... وضرب مثلا ببطنه الكبير الذى كان خاويا عندما كان جحشا لا يعرف السير مع القطيع ، وقبل أن يصاب بمرض الجشع .

أشار حمارنا بأذنه اليسرى الى جمع من الضباع كان يستمع الى خطبته ، وهمس في صوت منكر بأن آستماع عدوه إلى خطبته وآقتناعه بقوله هو خير دليل على حسن نيته .

كان كل ضبع ينظر الى حمارنا فيكشر ضحكا .. ويعرج عرجا بخطو يشبه الرقص ، أو برقص يشبه النديب في المآتم .. فيتعالى عند ذلك نهيق حمارنا فيملأ الجو بأصداء منكرة ..

كانت شياهنا تنظر تارة الى بطنه الكبير المتضخم شبعا ، وتنظر تارة أخرى الى بطونها الخماص ، فيتعالى ثغاؤها توجعا .

أتم حمارنا خطبته التي بدت لشياهنا المتألمة جوعا طويلة مملة ، فأحاطت بـه الضباع تلاطفه وتحاوره ، وعيونها مسامير مغروزة في بطنه ، وآنست منـه غفلة فآنقضت عليه تشبعه نهشا وعضا وتمزيقا ٠

بطن حمارنا منتفخ شحما ، وملآن حشيشا ، لقد أكل كل ما جادت به أرض حقلنا المجدب ٠٠٠

حقلنا يسكنه ذئبان ماردان ٠٠ كانا يدخلان الرعب على قطيعنا بأمر من حمارنا ٠٠ كان القطيع كلما أراد التقوت من الحشائش الصغيرة التي جاد بها القحط ، أدخل الذئبان الرعب عليه ، فتروح النعاج خماصا كما غدت ٠ وكان الربيع خيالا يراود شياهنا بلا ربيع ٠٠٠

لما بطشت الضباع بحمارنا لم يتحرك قطيعنا ، لأن الخوف والمسكنة والسكوت صارت جبلة فيه ٠٠ عيون شياهنا تنظر تارة الى بطن حمارنا المبقور ، متشهية نصيبا مما حواه من حشائش صغيرة ،٠٠ شياهنا من جوعها وخوفها تعودت أكل العفن من المزبلة التي « يتبول » فيها كلابنا ٠

الذئبان الماردان يسكنان حقلنا،كان كلاهما في جحره يكشر ضحكا يوم ممات حمارنا ٠٠٠ لم يعد حمارنا منذ ذلك اليوم يدوس مع القطيع الحقل بحوافره ، فمماته جعله لا يوفي بديونه « حملانا » للذئبين ، مقابل حراستهما الحقل ٠ وخرجا ذات صباح يدفعهما الجوع وخزا ، ولم يجدا حمارنا بل وجدا القطيـع مستأنسا يقضم الحشائش القليلة ومطمئنا الى حقلنا الذي بدأ يحبل خصبا ٠ ارتاعت شياهنا ، وآنضمت حزمة ٠٠ طالب الذئبان بدينهما الذي وعدهما به حمارنا ، فازداد القطيع انضماما ، ولم تستطع شياهنا حتى الثغاء ٠٠٠

وآنقض الذئبان على قطيعنا تمزيقا ٠٠ فنى قطيعنا ٠ الا من بعض الحملان الجرحى التي فرت الى حضيرتنا المتداعية ٠٠٠

عرفت أمي القصة كاملة عندما رأت حملاننا مجروحة فطار شبح الأمل الذي راود نفسها ٠٠٠

بقيت أمي تنظر الى بعيد ٠٠ وقد آزدادت حمرة عينيها ٠٠٠ وترسب الحزن في اعماقها ٠٠٠

كانت أمي تنظر الى الضباب ٠٠٠ تنظر الى اللاشيء ٠٠٠

ن٠ ب٠
هبيرة السواسي
في 1970/1/3

دعاية مغرضة

شعـر : محمد الحبيب الزناد

قَصَائِدِي
لاَ تَحْمِلُ طَعْمَ قَدِيمِ الشِّعْرْ
وَكَثِيرا مَا تُعَبِّرُ عَنْ شَكْلِ هَذَا الْعَصْرْ
عَنْ مَشَاكِلِ هَذَا الْعَصْرْ
فَهْيَ إِذَنْ قَصَائِدُ شَكْلِيَّهْ
قَصَائِدُ عَصْرِيَّهْ

* * *

قَصَائِدِي لاَ قَصْدَ لَهَا
فَهْيَ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا
وَلَيْسَتْ جُنُودًا مُجَنَّدَهْ
وَلاَ أَعْلاَمًا مُفْرَدَهْ
وَلاَ نُصُوصًا صَحِيحَةً مُعْتَمَدَهْ
وَلاَ أَعْمَالا بَاقِيَةً مُخَلَّدَهْ
وَلاَ تَقْصُدُكُمْ عَلَى خُيُولٍ مُجْهَدَهْ
قَصَائِدِي تَعِيشُ يَوْمَهَا فِي يَوْمِهَا
قَصَائِدِي مُجَدِّدَهْ
تُجَدِّدُ مَا خَزَّ فِي نُفُوسِكُمْ
قَصَائِدِي مُوَلِّدَهْ
تُوَلِّدُكُمْ بَعْدَ طُولِ عُقْمِكُمْ

قَصَائِدِي مُنَدَّدَهْ
تُنَدِّدُ بِعَارِكُمْ
قَصَائِدِي مُسَوِّدَهْ
تُسَوِّدُ البَيَاضَ فِي وُجُوهِكُمْ
وَلَا أَغْرَاضَ فِي قَصَائِدِي
فَأَنَا أَغْرَاضِي شَخْصِيَّهْ

* * *

قَصَائِدِي خَالِيَةٌ مِنَ الإِيقَاعْ
وَهْيَ كَالبِدْعَةِ
تَنْقُصُهَا الدُّعَابَةُ وَالإِبْدَاعْ
وَلَا أَبْعَادَ فِي قَصَائِدِي
وَهْيَ كَالبَذَاءَةِ
تَمُجُّهَا الأَسْمَاعْ
وَهْيَ كَرَأْسِ امْرَأَةٍ حُبْلَى
تَشْكُو الصُّدَاعْ
وَهْيَ خَائِنَةٌ لِلْمُبْتَدَا
سَتَصْدُرُ ضِدَّهَا بِطَاقَةُ إِيدَاعْ ! !

م. ح. ز.

تونس – ماى 1970

كلمات منثورة

بقلم : البشير المجدوب

- قيل سنجوع يوما لا محالة ٠ ستعجز الأرض حتما عن إطعام بنيها! ما أهون هذا بالنظر إلى جوع الروح وفقر القلب وضحالة الضمير ٠

★

- أسطورة الانسان الاوروبى وامتيازه الجوهرى عن سائر الأجناس ٠٠٠
أكذوبة لا يزال الشرق « المتاخر المريض » يفندها كل يوم ٠ لقد علمنا اليابان وغير اليابان أن العزيمة الصلد تقهر التاريخ وتبدل وجه الأرض وتصنع المعجزات ٠

★

- هل من الظلم أن نقول إن المروءة قد عزت فى مدننا وتضاءلت وأننا لم نعد نجد أريحية التونسى الأصيل ودماثة خلقه ولياقته و « انسانيته » الرائعة المحببة إلا فى قرانا وأريافنا وبوادينا ! ؟
أيعود ذلك إلى عنف الصراع من أجل العيش وإلى الرقى المزعوم والفرنجة الآثمة فى المدينة ؟

★

- الفن فى جوهره نهم بالحياة لا حد له ، ظمأ إليها لا يرتوى ٠
يأبى الانسان إلا أن ينعتق من حدود الحياة الواحدة امتدادا عبر المكان والزمان ٠ يتسلل ، بمعجزة الفن ، إلى ذوات الغير فيلتهم آلاف التجارب توسيعا لآفاق ذاته ، إثراء لها وإمتاعا ٠
كذا يعيش أصنافا من الحياة وأضعافا فى مدى من العمر واحد ٠

★

- « المروءة أن لا تفعل فى السر ما تستحى منه فى العلانية » ٠
أجل ! لكن ما حيلتنا فى ما يعرض لنا من خواطر مريبة ، ورغبات منكرة ونزعات محرمة نكظمها ونكبتها فلا تلبث أن تطفو من حين لآخر متحدية ساخرة ؟ !

★

إن أكبر جانب من توازننا وسعادتنا موصول بالغفلة واللامبالاة٠

★

جديدان لا يبليان أبد الدهر الموت والحياة ٠

ب٠ م٠

الى ضالة

شعر : محمد حمدى

يـا جثـة الأيـــام يـا أنـت يا صرخة الأحزان فى صمتـى
يـا قطـة ··· ظلت بقريتنـا مطرودة ··· ما ضمهـا بيتـى
العمر وهم ··· والضياع هدى هذا الهدى كل الـذى عشـت
وخـرافـــة الأقـداح أغنيـــة أنـت التـى فى سـرها تهـت
أحرقت هذا العمـر فى لهـف وبـراءة الاجفـــان أعـــدمـت
وتـركت نهـدا لم يـزل كلفـا رغـم الجنـون بلـــذة الكبـت
··· وتركته للـذئب يحفـره ··· ويعيده ما شاء كالنحـت
صوتى الحـزين أضعتـه وأنـا ما زلت أبحث عنك فى صوتـى
فى الغاب فى الصحراء فى وطنى فى رجع موال ··· وفى النبت
عـودى لنا للحقـل نحـى معـا يا صيحـة أفنـى بهـا موتـى

* * *

لولاك ! ما الانســان فى وطنى شبح من الاوهام والصمـت !

م· ح·

محاولة في تحليل شاعرية الشابي

(5)

بقلم : ابراهيم بن مراد

اما الطبيعة ، العنصر الثالث الذى ابتغى الهروب اليه ، كي يجد فيه « الخلاص » فقد اقترنت بالمرأة ، فى الغرض ، واقترنت بالوحدة ، فى الهدف . أى ان الطبيعة والمرأة قد اتحدتا لديه ، فاصبح جمال المرأة ماثلا فى الطبيعة ، واصبحت الطبيعة تجسم له ذلك الجمال الذى ينشده فى المرأة . واتحدت بالوحدة ، اذ ان هدفه من العزلة هو ان يعيش لفنه ولربة الشعر يناجيها ، **ليس** فى مكان بلقع ، خال ، بل على الجبال ، وبين **الاودية ؛ ضمن** اطار خلاب من الطبيعة . حتى ان دنيا الفنان لديه ، وكل ما **هب وما دب فى هذا** الوجود ، وانطبع فى قلب الشاعر ، **انما هى** أطر طبيعية ساحرة **لعالم مثالى** جمالى ... ولا اريد البحث هنا فى ما اذا كان حبه للطبيعة **ناتجا عن تأثره** **بطبيعة** بلاده الجميلة ، ام ان ذلك كان لطبع فيه . واعتقد **ان تعلقه بالطبيعة** كان نتيجة الاثنين : فهو الشاعر الرومنتيكي **المرهف الاحساس والشعور ،** **ميال بطبعه** الى الجمال فى شتى مظاهره . فحبه للطبيعة **نتيجة طبع فيه ،** واذ وجد فى تونس ما يزكى مثل هذا الطبع من جمال الطبيعة ، فقد اشتد هذا الحب لها اكثر فاكثر . حتى انه حينما يتمنى الوحدة والانعزال ، فان أحلامه تحمله الى التخيل كيف يرى نفسه حرا طليقا — فى ذلك العالم الطبيعى المثالى

أصرف العمر فى الجبال وفى الغابات بين الصنوبر المياد
... واغنى مع البلابل فى الغاب واصغى الى خرير الوادى
واناجي النجوم والفجر والاطيار والنهر والضياء الهادى (64)

بل انه يرسم ملامح ذلك « البيت » الذى يحلم به ، فاذا هى ملامح « شفافة » جدا ، من وحى الحلم ، الذى ظل يراوده حتى اواخر حياته . فيقول فى قصيدة « الغاب » بتاريخ — : 23—7—1934 :

« **بيت بنته لى الحياة من الشذى والظل والاضواء والانغام**
« **بيت من السحر الجميل مشيد للحب والاحلام والالهام**
« **فى الغاب سحر ، رائع متجدد ، باق على الايام والاعوام** (65)

ولكن الخيبة التى اصابته فى أحلامه بتلك الوحدة فى مسارح الطبيعة كانت شديدة الاثر عليه ، اذ حرم من هذه المتعة التى كان يتوق الى تحقيقها • فظل فى « المدينة » التى يحتقر أناسها ـ ابناء الشياطين ـ وما لديهم من النوادى التى يطلقون فيها سخف الكلام وميت الآراء لذلك كانت « شواغل الحياة » لا تسمح له الا لماما ان يعيش مع الطبيعة مغرقا فى تأمل جمالها • ولنا ان نقرر الآن ما اذا وجد هذا العزاء الذى ينشده للتخلص من وطأة الشعور بالزمن ومن كثافة قلقه الوجودى • رأينا انه خاب فى حلمه بالوحدة والعزلة • ورأينا انه وجد فى المراة بعض اللذة التى ينشدها • ولكن فوزه ذلك كان يتأتى له أحيانا ، فى فرص متباعدة ، لانه كان مثاليا ، ومثاليته تلك جعلته يرى فى « المرأة الاولى » التى أحبها اقدس مثال • لم يجد مثله فى حياته ، ولذلك ظل يرثيه حتى آخر حياته (سنة 1933) رغم قدم عهده ، واذ لم يتوفر له تحقيق حلم العزلة فى الطبيعة ، فانه لم ينجح فى أن يجد مهربه وعزاءه فى الطبيعة كذلك •

لذلك ، فانه يمكننا القول اذن انه خاب خيبة ذريعة • وتلك الخيبة قد زكت من قلقه الوجودى ومن حدة شعوره بالزمن وحدة احساسه بالسجن او حالة الحصار ، ضمن نقطة معينة من المكان • فكان ذلك سبب ادلهمام نظرته الى الكون وعمق تشاؤمه من الحياة • فكان شاعر الالم بحق • وألمه ذلك ليس فيه افتعال ولازيف ، فقد كانت كل تلك الاسباب التى مر تحليلها من دوافع ذلك الالم فى الشاعر • حتى اننا لو اردنا ان نطلق على الشابى تسمية ما وجدنا أصدق من « **شاعر الألم** » • فلا هو شاعر الطبيعة ولا هو شاعر الشباب ولا هو شاعر الحرية ولا هو شاعر الحب او المرأة ولا هو شاعر الوطنية بقدر ما هو شاعر الألم• ومعظم « أبياته » التى توجد فى الديوان تنضح بتلك المرارة وذلك التمزق الذاتى الناتجين عن الشعور بذلك الألم الدفين•وكيف لا و « غول الشقاء » له بالمرصاد فى كل لحظة وكل خطوة من حياته ؟ حتى اننا نشعر به كانه أصبح هو ذاته قطعة من هذا الالم او ان هذا الالم اصبح قطعة من حياته وجزءا من كيانه لا يفارقه فى اى من لحظات حياته • فقلبه دائم الشكاة لانه دائم الحزن والالم • وهو « **قلب تائه** » قد « **انضجته الزفرات** » فاصبح « **حقلا مجدبا** » و « **ليلا معتما تندب فيه الباكيات** » و « **كهفا مظلما تأوى اليه البائسات** » وهو فى آخر المطاف « **قبر فيه من أيام (الشاعر) الاولى رفات** » :

ايها السارى مع الظلمة فى غير أناة ،
مطرقا ، تخبط فى الصحراء مكبوح الشكاة
تهت فى الدنيا وما أبت بغير الحسرات

صل يا قلبي الى الله ، فان الموت آت ،
صل ، فالنازع لا تبقى له غير الصلاة · (66)

ويصل به الشعور احيانا الى حد الهوس ، فيرى ان القدر يعاديه ويسلك معه سياسة المعاكسة · وقد يكون ذلك الشعور لحدث تافه : « **··· لان القدر هاته السنة – فيما أرى – لا يريد ان يسلك معي الا سياسة المعاكسة والعناد · وكيف يكون يا صديقي حال من يتعمد القدر معاكسته ؟** » (67)

وفي ذلك العرم من الشعور بالمأساة ، والفيض من الاحساس بالالم اللذين يصلان الى حد التفكير في النهاية ، في الموت ، فيطلب من قلبه أن يستسلم وان يصلي الى الله مثل النازع ، في انفاسه الاخيرة ، في هذا العالم الماسوي الذي لم يجد فيه مخرجا ، ما ذاتراه سيفعل ؟ هل سيواصل الاستسلام والقنوط أم سيفكر في مخرج ينفذ منه الى عالم صحوى ينسى فيه الألم والاحزان ؟

لقد برزت ظاهرة في حياة الشابي ، تجلت في شعره ، في منتصف سنة 1933 ، تقريبا ، ثم تواصلت معه ، وهذه الظاهرة ، هي ظاهرة « **التمرد** » او « **الرفض** » · وقد تولد هذا « الرفض » عن تلك الحالة المأسوية التي يعيشها وعن ذلك الشعور العميق بعدائية العالم والقدر له ، الذي يعانيه · وفي الرسالة المؤرخة بـ 19 – 12 – 33 – الرسالة التاسعة والعشرين – يخبرنا ببداية هذا التطور : « **··· اني لا زلت كالماضي اشعر في صميم نفسي بأن الاقدار تحاربني · وهي سخافة على كل حال · ولكنني او من في قرارة نفسي بها · وانما الفرق بيني وبين نفسي الاولى (هو) اني كنت اتقبل آلام الحياة واتحسس اشواكها بنفس ضارعة وقلب دامع باك · اما الآن فانني القاها ببسمة الساخر المنتشي بجمال الوجود · وقد احسست ببداية هذا التطور لما اصطفت بعين دراهم · ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له الاثر الاكبر في تلوين نفسي بهذا اللون الجديد ، كما ان مصيفي هذا العام وما رايت فيه من صور الطبيعة الرائعة قد أكمل هذا التطور وانماه · اما الآن فاني اشعر بانقلاب عميق قوي في نفسي كل القوة · وستدرك هذا التطور في نفسي حينما تطلع على قصائدي الجديدة · وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد « الصباح الجديد » « 9 – 4 – 33 » الذي ارسلته الى « أبولو » وقصيد « نشيد الجبار » (الذي كتبه في اثناء المدة التي كتب فيها هذه الرسالة – اي في 15 – 12 – 33) هو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد** » (68) · وهكذا اتحد هذا التمرد بشكل من التحدي العنيف ، في أول نشأته · كان تحديا لتلك الحالة المأسوية من الالم والمرض والقدر الذي يعادي الشاعر · فبعد أن تولد في حياته ذلك « **الصباح الجديد** » و « **دفن الألم في فجاج الردى** » و « **نثر الدموع لرياح العدم** » و « **اتخذ الحياة معزفا للنغم** » ، واصبح يرى نفسه « **جبارا ، اقوى من الداء والاعداء والقدر** » :

سأعيش رغم الداء والاعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو الى الشمس المضيئة هازئا بالسحب والامطار والانواء
٠٠٠ وأقول للقدر الذى لا ينثنى عن حرب آمالى بكل بلاء :
لا يطفىء اللهب المؤجج فى دمى موج الاسى وعواصف الارزاء
فاهدم فؤادى ، ما استطعت ، فانه سيكون مثل الصخرة الصماء ٠ (69)

فقد تبلور هذا التحدى ، واصبح « تمردا » ٠ وهو تمرد نلمسه فى شعره فى مرحلته الاخيرة ـ على ثلاثة مستويات : فهو تمرد ميتافيزيقى ، وهو تمرد رافض للواقع ، وهو تمرد ثورى ٠ اما التمرد الميتافيزيقى فكان لديه رفضا للالم والحزن والاستسلام ، ورفضا حتى لفكره النهاية ـ الموت ـ ٠ وقد ظهر هذا التمرد الميتافيزيقى فى « نشيد الجبار » ـ اغنية بروموثيوس (الذى تمرد على الآلهة) خاصة ـ فلمسنا فى تلك الابيات الاولى تمردا على الداء والاعداء والقدر ٠ ثم يتطور هذا التمرد فيصبح على الناس الذين « يتجشمون هدمه ويودون لو يخر بناؤه » ٠ ولكن ذلك التمرد يبلغ ذروة العنف فى لهجة التحدى العنيف ، عندما يقول :

أما اذا خمدت حياتى وانقضى عمرى واخرست المنية نائى
وخبا لهيب الكون فى قلبى الذى قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فانا السعيد بانني متحول عن عالم الآثام والبغضاء
لاذوب فى فجر الجمال السرمدى وارتوى من منهل الاضواء (70)

والحقيقة ، هى ان لهذا التمرد الميتافيزيقى جذورا فى حياة الشاعر السابقة منذ اصبح ينضج شعريا ٠ فنحن نلمسه فى قصيدة « الى اللــه » (1929) ، التى يقدمها بهذه الكلمة « **تعرض لقلب الانسان الذى لا تنتهى اطوره ازمات نفسية ثائرة يعصف فيها الالم والقنوط بكل حقائق الحياة ، وتتزعزع معها كل قواعد الايمان والحق والجمال ، فيشعر المرء كأنما انبت ما بينه وبين الكائنات من وشائج الرحم والقربى ، فاصبح غريبا فى هاته الدنيا الغريبة فى نفسه ، وكأنما الحياة فن من العبث المرعب الممل الذى لا يجدر بالعطف ولا بالبقاء ٠٠٠** » (71) ٠ وتحت تأثير تلك الحالة من الشعور ، يعلن تمرده وتحديه فى كلمات شديدة حادة فيها من الاتهام لله والتعريض به مالا يتصور من مسلم ان ينطق به حتى فى سره ٠ ولكنه يقبل بالطبع من انسان ثائر ضد حالته التى حطمه الالم فيها ٠ والشابى فى تلك القصيدة ، ينتهى الىالاستسلام واعلان « اسلامه » وخضوعه الى « المشيئة العليا » والى القدر ٠ ولكن هــذا التمرد ، فى مرحلته الجديدة ، يصبح تمردا واعيا ، اذ كانت نظرته الاولى ناتجة عن شعور حاد بالألـم ٠ فكان تمرده نوعا من الايغال فى ذلك الألـم ، حتى اصبح رضيا بحالته تلك ، راضخا لها ، قنوعا بها ، اما فى هذه المرحلة فقـد

ادبيا ، يتبع ، فقط ، بل وكذلك حالة حياتية تعاش • وتلك الحالة التى اشبعها القلق الوجودى والسأم والضجر والمرض بجميع مستوياتـه ، سوداويـة ، فتفجرت حدة وضراوة وفداحة ، هى التى جعلته « يحلم » **بتلك الحياة المثالية**، وهى التى جعلته يصبح مثاليا فى رومنتيكيته كمذهب ، وفى شعره المعبر عن ذلك المذهب المثالى • فنحن نرى ان بواعث تلك « الرغبة » انما هى كـوامن فى ذات الشاعر • فهى بواعث باطنية نفسانية • ومن تلك المثالية التى يرغب فيها فى الحياة ، تولدت مثاليته فى الفن • فكيف له ان يقبل هذا الواقع الذى لم يجد فيه مطامح نفسه ، موردا لفنه وعنصر وحى لشعره ؟ لـذلك قـال : « **اذا انحط الفن الى خدمة الشعب واتباع منازعه وغاياته ، واصبح اداة يصرفها كيف شاء ، فقد انقلب عبثا صبيانيا ساذجا لا قـدسية فيه ولا جـلال** » (72) وهذه النظرة الرافضة للشعر الاجتماعى تدل على « **نفرة شاعرنا من الواقـع الاجتماعى من حيث هو واقع ومن حيث هو مورد للفن** » (73) ، وهذه النفرة من الواقعلم تكن عن ترف أو ترفه لدى الشابى ، بل عن تلك « الحالة » التى ذكرناها ، والتى جعلته « **لا يعبأ كثيرا بما قد طرأ على حياة الناس من عسر** » ، وكيف له ان « **يتنزل من عليائه** ـ كما يطالبه بذلك الاستاذ توفيق بكار ـ ، **وان يداخل الناس فى حياتهم اليومية المريرة ، حتى تنصهر نفسه بالواقع ، فتنضج ، وتحتك آراؤه به ، فتعمق ؟ كيف له ذلك النزول وذلك الاختـلاط بالشعب فى واقعه المؤلم وذلك الواقع احد الاسباب المكثفة من قلقه الوجودى والمعمقة من شعوره بالمأساة والمشددة من حدة « حالته الرومنتيكية » ؟•**

(أما قول الاستاذ بكار ـ فى دراسته الرصينة المتعمقة ، كما عهدنا دراساته من قبل ، حتى ان هذه الدراسة له تعد من أدق وارصن ما كتب الدارسون عن الشابى ، فى السنوات الاخيرة ـ عن « جنـاية المثـالية الـرومنتيكية » على الشابى ، فعلى غاية من الصحة • وذلك اذا اعتبرنا القيد الزمـانى والـذاتى البحث الذى فرضته تلك المثالية على شعر الشابى ، مواضيع وأغراضا ، فى معظمها • وهى جناية قد فرضت نفسها فرضا • فالشابى ـ كما بينا ـ كان مجبرا على أن يكون مثاليا ، رومنتيكيا • وهى جنـاية تنضـاف الى الجنايـات العديدة التى فرضها عليه القدر ، الذى كان يعتقد انه يحاربه) •

قلت : لكل تلك الاسباب رفض الشابى الواقع ، وتمرد عليه ولكن ، ليس لذلك فقط • فهناك سبب آخر اعمق جذورا فى النفس وأبعد أثرا فى حيـاة الشاعر الفنية • وهذا السبب هو ما اشرنا اليه فى الحلقـة الثـانية من هذه الدراسة ، عند اشارتنا الى مكونات المرض النفسانى الذى يعانيه الفنان ، وقد ذكرنا من تلك المكونات « العصابية » ، وأرجأنا الحديث عن المكون الثانى وهو « النرجسية » ، وسنتحدث عن النرجسية هنا كعامل من العوامل التى تتظافر

على الفنان فتجعل منه مريضا ينظر الى المجتمع نظرة خاصة، والى الواقع الذى يعيش فيه نظرة متميزة عن نظرات غيره من مواطنيه • فالناس كلهم مولعون بذواتهم، يحبون ذواتهم • وكل واحد يظهر ذلك الولع بها بطريقة خاصة • اما الفنان فيعبر عن ذلك الولع فى عمله الفنى ، بذلك العمل الفنى ذاته • أى أنه يقدم للجمهور فى انتاجه صورة لنفسه ولو كان ما كتبه فى منتهى الموضوعية • والاثر المخلوق هو الفنان ذاته • أى هو ابن الفنان الذى وضع فيه روحه : مزاجه وحسناته وسيئاته وعقده ومركباته ومرضه واحلامه ، وغير ذلك • وعندما يقدم ذلك الاثر للجمهور ، فانما يقدم ذاته ، وهو يحاول ان يكون ما قدمه جميلا ، مرضيا • اى ان يكون هو جميلا ، مرضيا : كى يولع الجمهور بفنه ، به هو ذاته • ولكن هناك عملية اخرى تتم اثناء الخلق ، تعمق من النرجسية لدى الفنان • فهو ، قبل ان يفكر فى الجمهور ، يفكر فى ذاته ، اثناء عملية الخلق • فاثره هو المرآة التى يرى فيها نفسه • وعندما يضع ذلك « المولود » يشعر بالراحة ، كما راينا ذلك لدى الشابى • فعملية الخلق لديه وسيلة « تنفس » ، ومن كل ذلك نستنتج ان عملية الخلق الفنى عملية ذاتية جدا يبرز فيها الفنان ذاته محاولة للتخلص من كثير من الاتعاب التى يعانيها• فهو لا يخلق اثره لانه يحب المجتمع او الجمهور ، بل لانه يحب ذاته ، يعشقها •

اما اذا كان « عصبيا » (Nerveux) ، مثل الشابى ، فان تلك النرجسية تأخذ بعدا آخر تحت تأثير تلك العصبية ، فالعصبى اعجز الناس على وجود مخارج وحلول لنفسه • ففورة الغضب والهيجان تعميه وتجعله غير قادر على تصور حل • وقلقه الوجودى يملأه بوساوس متوالدة دائما • وهى وساوس تصبح فى نظره دليلا على سموه وتفوقه • وعوض ان يقاوم ويدافع عن نفسه ، فانه يستسلم ، بلا سلاح • واذ يجد نفسه ضحية فى الوسط الذى يعيش فيه• فانه يسخط على ذلك الوسط ويعنف فى السخط عليه والنفور منه • ثم يشعر بعدائية ذلك العالم له تتزايد شيئا فشيئا • ثم ينتج عن ذلك التصادم بين عدائية العالم ــ أو الوسط ــ التى تنميها العصبية ، وبين شعوره بالسخط على ذلك العالم ، الاحتباس الحاد ــ المبالغ فيه ــ الذى لا يحتمل ، والتناقض المؤلم بين الخيال والواقع (74) •

وهذه الحالة العصبية قد توفرت لدى الشابى • فقد كان الصراع ، فيه ، بين الخيال والواقع حادا ، للشعور بعدائية العالم له ، والسخط على ذلك العالم ، اللذين تولد عنهما التصادم العنيف • وقد كان الصراع فيه بين الخيال والواقع صراعا بين العالم المثالى الذى يصبو اليه بخياله ، والعالم المادى الذى يحده ، وتخيله لذلك العالم المثالى اثناء كتابته ، انما يعبر عن سخطه على ذلك الواقع ، الذى ينفر منه • والتعبير عن ذلك السخط مثل التعبير عن التوق الى ذلك العالم المثالى ، فكلاهما ارضاء لغريزة الكره ، فكلاهما اذن وسيلة

تنفس • وما أن يتم التنفس حتى يتم ارضاء الذات • وعندئذ تظهر النرجسية واضحة • فتكون عملية الخلق اذن هروبا من الواقع ، لحدة الاحساس بـه • ويكون الدافع الى الابداع الفني هو ذلك الهروب من الواقع الى عالم آخر مثالى ، ويكون مورد الفن ، ليس ذلك الواقع الذى ينفر الشاعر منه ، بل ذلك العالم المثالى • ولذلك كله ، وجد لدى الشابى هذا التمرد الرافض للواقع • فقد كان تمردا رافضا لهذه « الدنيا الميتة » التى يعيش فيها مكرها :

إنى أرى فأرى جموعا جمة لكنها تحيا بلا الباب ،
يدوى حواليها الزمان كانما يدوى حوالى جندل وتراب
وإذا استجابوا للزمان تناكروا وتراشقوا بالشوك والأحصاب
••• الويل للحساس فى دنياهم ، ماذا يلاقى من اسى وعذاب (75)

لكن تمرده الرافض هذا لم يكن سلبيا ، ذلك انه تولد عنه تمرد آخر هو « التمرد الثورى » ، فى شعره وحياته • وذلك يعود الى أنه لم يكن يرفض « الشعب » كجوهر ، كمعنى ، وقد رفضه كمادة ، كواقع • فهو يعلم ان فى هذا الشعب « ثروة روحية » زاخرة ، تصلح لان تكون مادة الفن لمن له بصيرة • وتلك الثروة الروحية هى التى تبعث فى الشابى الامل فى مجىء يوم ينهض فيه هذا الشعب ويستيقظ واعيا • وذلك الامل هو الذى جعل لهجته حادة وهو يعبر عن هذا « التمرد الثورى » ، مخاطبا « الشعب » :

أنت يا كاهن الظلام حياة تعبد الموت ! انت روح شقى
كافر بالحياة ، بالنور ، لا يصغى الى الكون قلبه الحجرى ،
انت قلب ، لا شوق فيه ولا عزم ، وهذا داء الحياة الدوى •
انت دنيا يظللها أفق الماضى وليل الكآبة الأبدى ،
مات فيها الزمان والكون الا أمسها الغابر القديم القصى ،
والشقى الشقى فى الارض قلب يومه ميت وماضيه حى
انت لا شىء فى الوجود فغادره الى الموت فهو عنك غنى (76)

لكن هذا التمرد الثورى لم يكن على الشعب فقط •• فقد كان معبرا عن نشدان الشاعر وتوقه للحرية ، سواء كانت حرية ميتافيزيقية للتخلص من قيد الزمان والمكان ، او الحرية « السياسية » او « الاجتماعية » ، ضد قيود الظلم والطغيان • ولذلك فقد اقترن تهديد الشابى للشعب وتنديده بجموده ، بتهديده لقوى الظلم والطغيان ، وتنديده بخنقها لرقاب الناس • وهذا التمرد الثورى هو الذى يتيح لنا تفسير ناحية من حياة الشابى تناقض الصورة التى حملناها عنه الى حد الآن ، وهى الصورة السلبية • فقد عرف فى حياة الشابى جانب ايجابى • وهو سعيه الى « الفعل » • ونحن كنا قد وضعنا فى بداية هذا الفصل سؤالا عن سبب اتخاذ الشابى للفعل وسيلة للتغلب على الشعور

بالزمن • وقد أتيح لنا الجواب • فسعى الشابي الى النوادي الادبية ومشاركته الفعالة في النشاطات الثقافية ومحاولته المشاركة في خلق « وعي تونسي » بما كتب عن التراث مقيما مغربلا له في « الخيال الشعري » ومناقشته للدين كما يفهمه البسطاء في « الهجرة النبوية » (محاضرة) ، وغيرها من المحاولات الايجابية ، التي نجد ذكرها في مذكراته وفي رسائله ، كلها توضح لنا ان الشابي كان يريد أن « يفعل » شيئا صالحا لهذا الشعب الذي يؤمن به كروح زاخرة وكجوهر صالح • ولكن قد يتبادر الى الذهن وجود تناقض بين حياة الشابي في جانبها الفعلي الايجابي ، وبين أفكاره المثالية والرافضة • وهو في الواقع توهم خاطىء • فلا تناقض ، ما دام ذلك الفعل الذي يقوم به الشابي ارضاء للرغبة التمردية الثورية فيه • فثورته على الجماد وعلى الظلم والطغيان اللذين يقيدان حرية الآخرين ، وثورته على واقع الشعب المرير الذي لا يريد ان يشعر بقساوته عليه وحدته على احساسه ، كلها قد جعلته يتمرد على تلك المظاهر ويتوق الى الامثل ، الذي يدخل ضمن نظرته المثالية أيضا • ولذلك كان يسعى •••

* * *

الى هنا ينتهي بنا البحث في هذه المحاولة لتحليل عناصر شخصية الشابي الشعرية ، التي حاول الدارسون من قبل ان يضعوا لها صورة ، ولكنها لم تكن ابدا متكاملة • وبعد هذا البحث المتواضع نتبين ان الشابي كان فنانا ، مريضا ، مصابا بقلق وجودي ، ينشد الحرية للتخلص من قيد الزمان والمكان ، وللتخلص من واقع مؤلم يعيشه ، ويحيط به • فكان متمردا ، رافضا ، متحديا لشتى القوى ، غيبيها وظاهريها • وهذه الملامح لشخصيته تبرزه أمامنا في أتم صورة « للبطل » الذي ساد الادب منذ اواخر القرن التاسع عشر ، وهذا البطل هو « اللامنتمي » (Le Détaché) • فالشابي وان كان ينتمي بجسده الى هذه الارض التي انجبته ، فانه ، بفكره ، لا ينتمي الى أرض معينة ، ولا يريد ان ينتمي الى أرض معينة • بل يريد ان يخلق عالما مثاليا يعيش فيه ، هو عالم من الحلم والخيال والشعر كله جمال في جمال • والناظر بامعان الى هذا العالم الذي يريد خلقه ، يرى جليا أنه عالم أطفال ، عالم ساذج ، بسيط ، يغفو تحت كتل من الانوار القدسية ، والاحلام المرفرفة ! هو عالم من الطهر والجمال لا رجس فيه ولا دنس • لا أثر لألم فيه ، أو حزن أو تعب • هو عالم كله حرية ، لا قيد فيه ولا عبودية ولا شعور بفداحة المكان والزمان اللذين يسيطران على الشعور في هذا العالم السفلي،عالم البالغين،الذي يعيش ضمنه هذا الطفل الوديع،الذي لم يجد طمأنينته ، بل عاش معذبا ، قلقا ، يشعر بانه ليس في الموضع الذي يجب ان يكون فيه • هو « **محيط كريه جدا • والناس الذين يحيطون به ، مقيتون جدا ، ضد الحياة • لانهم مجردون من الدوافع ، ويظنون انه ليس هنالك**

من سبب معقول لفعل شيء آخر » (77) وهذا العالم هو عالم البالغين · هو عالم هذا القرن العشرين المعقد · اما عالم ذلك الطفل فهو عالم « اللامنتمي الرومانسي » · هو عالم القرن التاسع عشر ، الذى ازدهرت فيه الرومنتيكية · ولكن الشابي لم يكن لا منتميا رومنسيا مثل اللامنتمين الرومنسين الغربيين · وذلك لانه وجد فى محيط آخر ، شرقي · ثم لانه وجد فى القرن العشرين · فى حين ان الآخرين وجدوا فى مجتمع غربي ، وفى القرن التاسع عشر ، ولهذين العاملين ، **أثر كبير فى تكوين نظرة الشابي كلامنتم رومنسي الى ذلك العالم المثالي الذى تختلف ملامحه اختلافا جوهريا عن العالم الرومنسي الذى كانوا يحلمون به** · وهذا الاستنتاج ـ بان الشابي لا منتم رومنسي ـ يتيح لنا ان نقرر حقيقتين فى نهاية هذه الدراسة :

1) **إن الشابي ـ تاريخيا ـ متأخر عن أوانه ، عن عصره ، كشاعر رومنتيكي، فعالم اللامنتمي الرومنسي ـ الطفل ـ قد وجد فى القرن التاسع عشر · ولكن الشابي قد أتي فى وقته** لانه لم يفتعل هذا المذهب ، لانه كان **نابعا من ظروفه الخاصة ، فكان يعيش** الحالة الرومنتيكية ، فلا يمكن ، لذلك ، ان **نقول ان نهاية المذهب الرومنتيكي** ، هى نهاية القرن التاسع عشر · اذ يلاحظ ان المذهب **الرومنتيكي قد انتهى** بالشابي فى الثلث الاول من هذا القرن ·

2) **إن ثورة الشابي** كلها وتمرده كله فى شتى مستوياتهما ، **موضوعان تحت الشك** ، فى قيمتهما · لانهما كانا ثورة وتمرد انسان مثالي ، رد فعل ضد **ما يلاقيه من الخيبات** المتتالية عليه · لذلك كانت ثورته وكان تمرده تذبذبا بين المقاومة والاستسلام ، شأنه فى ذلك شأن الطفل الذى يشعر بالخطر فيقاوم ، واذ تعييه المقاومة ، يستسلم الى الامر المقضي · والى ذلك الاستسلام والخضوع التامين ، قد انتهى امر الشابي · فبعد ان رأيناه مقاوما ثائرا ، متمردا ، نراه يتردى من جديد فى تشاؤمه وفى عالمه الرازح تحت الألم والقيود ؛ اذ يعلن فى اخريات حياته ، موجها هذه « الشكوى الضائعة » الى اللاشيء (5 أوت 1934) :

يـا لـيـل ! مـا تصنـع النفس التى سكنت

هذا الوجود ، ومن اعدائها القدر ؟··· (78)

إ · م ·

عيناك وغابة احزاني

شعر : سويلمي بوجمعة

عيناك وغابة احزانى
ما لون الآتى يا قدرا ما اضحكنى يوما فى عمرى الا ابكانى
الصمت قطار سائقه المعتوه تحدانى
ما زالت فى جنبى محطته الكبرى
استقبل فيها خلانى
عبر الذكرى ..

* * *

عيناك وغابة احزانى ..
وصدى صوتى يتكسر عبر القضبان
جلاد الليل يعانقنى
والغصة فى اعماقى تخنقنى
ومن الماضى تمتد ذراعان

* * *

عيناك وغابة احزانى
وبقايا مشنقة تتدلى فى صدرى
هل القى اليوم لها غيرى ..
ماذا لو أمنحها شيئا فى الدنيا اكبر من عمرى
شيئا من شعرى ...
ماذا لو انى اخمد فيها انسانى

* * *

عيناك وغابة احزانى
لا مرفأ بعد اليوم لربان

مارست مع الدنيا مأثورا لعبتها فى مسرح خذلانى
كانت لى اجنحة من نار ...
نبتت فى عينى الاشجار ...
كبرت عرصات الزيف .. ومثل الزيف تخطانى

* * *

عيناك وغابة احزانى
لا لون متى القاك لالوانى
يا شرفة حبى جئت أكدس فيك خطيئاتى
والم بقايا من ماضى الزمن الآتى ..
....
آه لو كان بامكانى

* * *

عيناك وغابة احزانى
لم انتظر النسيان وانسى بعدك نسيانى ؟
يا وجها كان اطل .. وغاب مع الأضواء ...
لم افتح نافذتى .. لكنى اسمع فى قلبى وقع الانواء
وصدى زخات يلفظها المجهول
كالشىء الهائم يحفر ذاكرتى
كرؤى شبح مقتول
يتسلل بين ظلال غائمة عبر التاريخ .. ليفتح نافذتى
ليضاجع احلامى في الليل ويركب اخيلتى
ليسمرنى .. حتى لا تعبر هذا القبر فصول

س. ب.

مطالعات

شخصيات وتيارات

تاليف : أحمد خالد
تقديم : محمد مزالي

يوم علمت ان الاستاذ أحمد خالد يعتزم جمع عدد من دراساته وأبحاثه ، المنشورة بمجلة « الفكر » خاصة ، ونشرها فى كتاب بعنوان « شخصيات وتيارات » شعرت بالارتياح والاعتزاز فى آن واحد ٠

فقد عرفت أحمد خالد منذ ان كان طالبا بدار المعلمين العليا منتسبا الى اسرة « الفكر » متحمسا لاتجاهها التونسى الصميم ، عرفت فيه الوداعة الطيبة التى تميل بصاحبها الى الصمت الايجابى والتأمل الخصب، وآنست منه التسامى الى المثل العليا فى الحياة والتشبث بفضيلة الوفاء لمعانى الوطنية والاخلاص للذات ، والعمل الصامت الدؤوب ، ووجدت عنده شغفا بالدرس والبحث وتطلعا الى خبايا الادب التونسى المبدد الشمل فى الصحف والمجلات ، وأعجبتنى منه سماحة نفس وعفة لسان وفرط حياء ٠ وهى جميعها صفات أصبحت اليوم نادرة عند فريق من الشباب المتعلم الذى جرفه العصر الحديث بمغرياته وسرعة أحداثه وغرابة مكتشفاته فالتمس النجاح الرخيص وارتدى ازياء خاطتها له أيد أجنبية أو انتصب على عرش الببغاوات متوهما انه ظفر بالطرافة أو وفق الى الخلق ٠

وارتحت كثيرا عندما لاحظت أن وجوده بسوسة مدرسا بالمعاهد الثانوية ، بعيدا عن المراجع والمكتبات لم يثنه عن الدرس ولم يحوله عن هوايته الثقافية السامية ، خلافا لعدد كبير من زملائه الذين يتعللون بضعف امكانيات العمل وقلة المصادر حتى بتونس العاصمة لتعليل كسلهم وتقاعسهم او تغطية عقمهم ٠ بل انه ظل يرابط فى ساحة البحث وينهض بأعباء المثقف الحق الذى يلتمس الجزاء من نوع العمل الذى يقوم به ويقف حياته من أجله ، فقد صدر له كتاب قيم عن الطاهر الحداد بعد عناء كبير لان جحافل الرجعية التى ذهب ضحيتها هذا المصلح الكبير لا تزال تتقاوى على نفسها للصمود فى وجه التقدم ولكن هيهات أن يحجب السحاب نور الشمس طويلا ٠

بل كأن العراقيل التى وجدها أحمد خالد فى طريقه زادته ثقة فى نفسه وايمانا بنبل رسالته فيواصل البحث ويعنى بجمع ما تفرق من مصادر الادب

التونسي وما شرد من اخبار اعلام هذه البلاد وينبه الى ما خفى أو أهمل من شخصياتنا الفكرية او الاجتماعية ، ويشيد بفضل من مهد الى نهضة تونس وينصف من ظلمه معاصروه غفلة او جهلا او تعصبا ، كما يحيى ذكرى الغابرين كأنه يخشى ان تذهب بهم ريح النسيان او تقتلهم ـ ثانية ـ عقارب العقوق ٠

الا ان التزام أحمد خالد وعزوفه عن « المجانية » المطلقة فى البحث وفرط محبته لبلاده وغيرته على أدبها وثقافتها لم تزغ به عن مسالك البحث القويم ولم تنسه قواعد الدراسة الرصينة التى تقتضى « النظر والتعليل بعد التنقيب والتنقير » فهو يؤكد ان البحث وان اقتضى الذوق وسلامة السليقة « تعبد وصلاة » فيجمع بذلك فى أروع صورة بين نبل المقصد وكرم المنزع واصيل الاتجاهِ وبين أمانة العلم واستقامة المنهج ٠

ولئن انصرف صاحب « شخصيات وتيارات » بكليته الى استجلاء معالم الفكر التونسى المعاصر التى كادت ان تندثر بسبب غفلة بعضهم ، فعرف بسعيد أبى بكر وحلل جوانب كثيرة من خصومته الادبية مع زين العابدين السنوسى ، وحلل تصور الشابى للمرأة ومنزلتها فى شعره ، والقى ساطع الاضواء على موقف عدد من الشعراء التونسيين من قضية السفور والحجاب فى الثلث الاول من القرن العشرين وتعرض لجدلية القديم والجديد من خلال علمين من اعلام الفكر والشعر بتونس فيما بين الحربين العالميتين هما راجح ابراهيم وسالم بن حميدة ، وخص ابن خلدون بدراسة مستفيضة ، فهو لم يقتصر على اعلام تونس وحدهم بل درس رجالات أدبية وفكرية يعتز بهم كل من ينتسب الى الحضارة العربية الاسلامية أمثال الجاحظ وابن حزم وقدامة بن جعفر والمعرى واقبال وتوفيق الحكيم ، وهو بذلك يقدم اجل الخدمات للتراث العربى الذى نعتز به جميعا ونعمل على المساهمة فى اثرائه واشعاعه ٠

وانه لا يمكن فى هذه المقدمة ان اتعمق فى درس ما احتواه هذا الكتاب القيم من نفيس البحوث وما كان القصد الدرس او النقد ٠ انما هى كلمة اعجاب وتقدير أردت ان اسجلها بكل صدق آملا ان يكون هذا الكتاب مرجعا مفيدا للاساتذة والطلبة ولعموم الادباء اذا هم راموا دراسة الادب العربى عامة والادب التونسى خاصة ٠

وانى على يقين ان الاستاذ أحمد خالد سيواصل عمله الكبير مبرأ من الغرور بالنفس ، بعيدا عن القناعة ، لا ينال من عزمه غمط للحق ولا جحود للقيمة ، مقتنعا بأن أجل الاعمال وابقاها على الدهر فائدة أهدأها صوتا واقلها جلبة وألصقها بالفكر الأصيل (*) ٠

محمد مزالي

ديسمبر 1969

(*) نص المقدمة لكتاب « شخصيات وتيارات » ٠

ندوة القراء

خواطر عابرة

بقلم : عبد الرحمان اللموشي

الخاطرة حقيقة عارية :

الخاطرة ، ليست فكرة ولا رأيا ، لأنها لا تحتاج الى برهان يعضدها ٠ وهى بذلك لا تكون محل نقاش حتى بين الانسان ونفسه ٠ لانها لا تطلب الايمان بها والكفر بغيرها ، بل تعرض نفسها عارية ، فان راقك تجليها أنعمت النظر ، وان ساءك عريها فقد ساءتك الحقيقة ألم تعلم ان الحقيقة لا تكون إلا عارية ، متعرية ؟!٠٠

القضية الفكرية :

القضية الفكرية كالأم ، قديمة قدم حواء ، وحديثة حداثة وليدة اللحظة بأى مكان كانت ٠٠ ويبدو ان القضايا الفكرية تأثرت الى حد الجنون بالتجارب العلمية التى تمارس يوميا فى هذا العالم ٠٠

ألم تقرأ قصة « الانسان الصفر » فهى « تجريبية » ؟٠٠٠

وأشهد ان هذه التجربة كانت ناجحة الى حد الكشف عن أسلوب جديد فى كتابة القصة قد يكون له شأن وأى شأن فى عالم القصة المعاصرة ٠٠٠

أسلوب الكتابة :

القارىء اليوم مستعجل دائما ، تشوقه المطالعة ، ويهوله الكم ، ولا يعنيه الكيف ، بقدر ما تعنيه الدقائق التى قد يخصصها للتقييم والفرز ٠٠ لذلك وجب أن نعيد النظر فى أسلوب الكتابة ٠ وليس فى هذا بدعة !٠٠

بالأمس كان جر الذيل من أسباب الأناقة والخيلاء ٠٠ واليوم ، أليست الأناقة كل الأناقة فى ارتداء ما قصر من الثياب ؟٠٠ فاذا كان الرجل لا يلبس المينى جيب ، فهل قارنت بين معطفه اليوم ، ومعطفه بالأمس ؟٠٠٠

مفهـوم الحـريـة فـي الشعـر !٠٠

الشعر كلام ، والكلام فى لغة الناس حر ، إلا أنه فى لغة الشعـر مقيـد ، فالأصل إذن ، الحرية لا التقيد !٠٠ كما إن الأصل فى الانسـان البـداوة لا الحضـارة ٠

ألا ترى أن شاعر اليوم ـ ولا أعنى الشاعر اليـوم ـ يصـر على التمسـك بالطارىء عليه فى الوقت الذى يتبرأ فيه من الطارىء على كلامه ٠٠ يرفض أن يكون بدويا ويرفض ان يكون كلامه مقيدا !٠٠

هل الشعر هو كل الكلام الذى يتكلمه الناس ؟٠٠

لا ، هو كلام مخصوص فى شىء مخصوص لا يتأتى إلا لخاصة من الناس ٠٠ وإذن من هنا جاءت قيوده ٠٠

الخليل بن أحمد الفراهيدى (٧١٢ ـ ٧٧٨ م٠) هو الذى ضبط هذه القيود (العروض) وهى البحور وعددها ١٥ بحرا وتداركها الأخفش بواحد فصـارت ١٦ بحرا ٠٠

البحر يتركب من عدة تفعيلات وهى : فعـولن ـ مفـاعيلن ـ فاعـلاتن ـ مستفعلـن ـ متفـاعلن ـ مفـاعلتن ـ فـاعلن ـ الخ ٠٠ قد تتكرر التفعيلة الواحدة 6 أو 8 مرات لتكون البيت الشعرى وقد يتكون البيت الشعرى من تفعيلتين مختلفتين : فعولن ـ مفاعيلن ـ مثلا ٠

رأى بعض الشعراء فى بناء البيت الشعرى على الصورة المتقدمة تضييقـا عليهم وحدا للاندفاع الشعرى قد يخرج الشاعر من حاله الشعـرية فيصبـح ناظما ٠ وهذا الوصف لا يقبله حتى الناظم نفسه ٠ فتحرروا من عدد التفعيلات فى البيت الشعرى ٠ فصار البيت الشعرى يبنى عندهم من تفعيلة واحدة أو من اثنتين أو من ثلاث أو من أكثر ٠٠ على الا يتجاوز ذلك عدد التفعيلات التى أقرها الخليل بالاستقراء فى البحر المراد الكتابة عليه ٠٠ على أنهم لم يتحرروا من القافية لأن الذوق العربى يفرض وجود جرس موسيقى فى الشعر ٠٠ لذلك ترى الشعر المتحرر من عدد التفعيلات يكتب على أسطر تقصر وتطول ، فمـا قصر منها كان عدد تفعيلاته أقل مما طال ٠٠

فهل أدركت الآن مفهوم الحرية فى الشعر ؟٠٠

فاذا تحرر الشعر من التفعيلة ، فقد تحرر من اسمه أيضا ٠٠ وما أكثـر اليوم هذا الشعر (الآبق) وليسمح لى الصديق الشاعر الرائد أحمد اللغمانى

أن أستعمل هذا الوصف الظريف الذى لم اسمعه من غيره .. ولعله يقبل أن يضم صوته الى صوت ابن الدهان البغدادى فنهمس سويا فى آذان رعاة الشعر الآبق :

لا تحسبن أن بالشعـــــر مثلنـــا ستصيـر
فللـدجـاجة ريـش لكنهــا لا تطيـر

والشعر المقصود ، هو ذلك الآبق الذى قال عن نفسه :

بالحـر ، هـذا يسمينـى على ثقـة
يشين بيتى لديه الباب والسقـف
حتى إليه هـوام الأرض قد زحفت
فى ركنه عشش الاسفاف والسخف
فبـات خلقا غريبا مـا لـه مثـل
أصم ، أبكم ، أعمى مـا لـه أنـف

النقـد الأدبـى :

يخضع النقد الأدبى للذوق ..

والذوق ذاتى صرف .. لا تحده مقاييس ، ولا يلبث على حال ، فهو متطور أبدا .. لانه من هوى النفس . والنفس ـ كمـا تعلـم ـ تحب وتكره ، تميل وتزور ، دون أن تكون هى نفسها قادرة على تعليل هذه المفارقات فى سلوكها..

ومن هنا كان لا بد ان يكون أى نقد متسما بذاتية النفس التى أملته ، متأثرا بميولها الخاصة .. وقد يكون هذا النقد نزيها ، بناء ، وهادفا . إلا أنه لا يجوز لك أن تصفه بالذاتية بل أنت مرغم على نعتـه بالموضوعية ، وإلا استهـدفت لسخط ثلة من الكتاب ما يزالون يؤمنون بموضوعية النقـد !. وهـب انـك فعلت .. وانهم سخطوا ، واتهموك .. فلك ان تتأسى . ومـا تأسيـك إلا بحالهم .. ألم يعتقدوا أنهـم فى سخطهـم عليك ، وفى اتهـامهم لك ، وفى استهزائهم بك إنما هم موضوعيون !.. عليك ـ وليس لك ـ أن تشفق عليهم لأنهم قومك وهم لا يعلمون ..

ليست الموضوعية وحدها اسما بدون مسمى ، فالوفاء ، والعفة ، والايثـار كلها اسماء وحسب .. غير ان حبك الشىء يحملك على مغالطة نفسك .. حتى

تكأن عينيك لا تريان وأذنيك لا تسمعان،وأنفك لايشم٠٠ويديك لاتلمسان!٠٠ سيأتى ذلك اليوم الذى يصبح فيه سانت بيف (Sainte - Beuve) النـاقد الذى اكتشف الحقيقة ، وكان أذكى من أن يغالط ٠٠

اللغة العربية ، والبشير بن سلامة :

إذا أمكن لك أن تقرأ قراءة الوعى هذه السطور ، فثق إنـك تحسن اللغـة العربية ٠ وهى عندك معلومة ٠٠ أما البشيـر بن سـلامة فهو كاتب تونسى متزن ، عمق ثقافته باد فى كل ما يكتب ، لعل أصالته هى التى أهلته لرئاسة تحرير هذه المجلة الرائدة وذلك لأن مؤسس الفكر الاستاذ محمـد مـزالى لا يعرف وصفا للأديب غير « الأصيل » ولا وصفا للأدب غير « الأصالة » ٠

وصلة البشير بن سلامة باللغة العربية صلة وثقى لا شك فيها لسببين : أولا : لأنه عربى ، ثانيا : لأنه وفر لنفسه من القوة ما جعله يأخذ بناصيتها ذلولا الى حيث يريد ، فهى بين ذراعيه مطواع ، الحول كله له عليها ، ولا قوة لها عليه ٠٠

الآن صار العنوان مفهوما ٠٠ أما لماذا هـذا العنـوان ؟ خـذ الجـواب فى كلمات ٠٠ فى جملة من إعداد الفكر وفى فصول مما جاء فيها كتب البشير بن سلامة عن اللغة العربية كما لم يكتب أحد من قبله ــ فى تونس ــ على الأقل ــ لأنه ينطلق فى معالجة القضايا من مركز الدائرة لا من نقطة من محيطها وتفطنه لما وقع فيه غيره كاف وحده لوصوله الى نتائج إيجابية ٠٠ فكان بالقياس الى ما فعل فيلسوفا كلبيا ، فى لغته الملـح ملـح وليس ربحا والفحم فحم وليس بياضا والصحراء صحراء وليست مفازة ، كما ان القافلة صفة للجماعة العائدة من سفر وليست صفة لها عند ذهابها ٠

قدس ما شئت ٠٠٠ ولكن دعنى أنقد ما أشاء ٠٠ أنت تفضل الايجابية ، والتقديس ليس من ذلك فى شىء ٠٠ وتنكـر النقـد وهـو الايجـابية التى تفضـل !٠٠

البشير بن سلامة ، يريد أن يعرض فى تواضـع ملحـوظ حيـرته بشأن الطريقة المثلى التى تساعد الطفل العربى على تعلم لغته العربية ، بل يريد أكثر من ذلك ، يريد طريقة تحبب الى الطفل لغته ، تجعله يتعلق بها ، تعلق التوق والشغف ، يريد طريقة تلهم الطفل العربى سواء البر بلغته ، وتجنبه سوء العقوق بها (١) ٠

فهل تصدى أولو الخبرة والاختصاص الى تبديد هذه الحيرة ؟٠

أنا لا أحب أن أجيب عن هذا التساؤل ، تفاؤلا ! إذ عسى ، ولعل ٠٠٠ وتحت هذا العنوان « **الشباب التونسي واللغة العربية** » طرح الأستاذ البشير بن سلامة مسألة الاكتساب والتصرف فى اللغة العربية بالقياس الى اكتساب اللغة الفرنسية والتصرف فيها ٠ وأبرز العوائق الجذرية التى تكمن ــ حسب ما ذهب اليه ــ فى تأخر ظهور الطباعة عند العرب ، الى جانب النقص المخل فيها وهو المتمثل فى فقدان الشكل !٠٠ وقد اعتمد الاستاذ البشير بن سلامة معطيات علمية حديثة بالاضافة الى السند التاريخي بالمقارنة بين أقطاب الفكر العرب وغيرهم ٠٠ ورغم هذه العوائق والصعاب فان الشباب التونسى متشبث بلغته حريص على ان ينسجم معها !٠٠ (وهو الذى كيفته اللغة الفرنسية المعتمدة على الكتابة الكاملة وخولت له أن يكون له تفكير يتماشى مع عصر الطباعة ، والانسان بطبعه وما جبل عليه منساق الى احتضان عصره ومسايرة ركب التقدم ، إذ لا يعقل ان تفتح أمام الانسان أبواب المعرفة وينكص على اعقابه خاسئا) (2) ٠

ترون ان هذه المسألة تفتح باب المقايسة على مصاريعه ــ باعتبار ان لهذا الباب أكثر من مصراعين ــ ٠

فهل تصدى أحد من أهل الخبرة والاختصاص للمناقشة ؟

أنا لا أحب أن أجيب عن هذا التساؤل ، تفاؤلا إذ لعل ، وعسى !٠٠ اللغة العربية ومدى كثافة حظها من التقدم الفكرى الذى يمثله استيعابها لمختلف المفاهيم الجديدة العلمية ، والفلسفية والفنية ٠ هذا تساؤل محير يرفع عنه البشير بن سلامة الستار ٠٠ ويحاول أن يجيب عنه بلغة الباحث المتشكك ٠ ولكنه يقنع فى ذات الوقت بالاثارة الحافزة ٠٠ (3)

فهل أثار وهل حفز ؟!٠٠ لعل وعسى ٠٠ هذا البسط هو شحم العدد 4 جانفى 1969 ٠

ويقرر البشير بن سلامة أن (**أزمة الخلق الأدبى أزمة لغة**) لذلك وجب تفجير اللغة وبناؤها بناء جديدا ٠

ولقد كان الأسلوب هو الميزة بين أديب وأديب لأن الأسلوب كالبصمة تختلف من شخص الى آخر ٠٠ ولكن البشير بن سلامة يرى أن البناء الجديد للغة الذى (ينفرد به الخلاق الحق ويسن من جرائه نمطا جديدا تتبارى فيه

الاقلام بشتى الاساليب وعديد الظلال) (4) هذه قضية لو كان النقد عندنا حيا يرزق لا نزعج لها !٠٠ (وليس منها) ٠

لكن ٠٠ لعل وعسى ٠٠ ينجم نقد ينفعل بمثل هذه القضايا الأصيلة ٠٠

أما الشعر ، ولغة الشعر ، وكيف نشأت ؟ وهل من الممكن إيجاد لغة أخرى للشعر ، والوزن ، ومدى قدرته على احتمال التجارب ؟ وهل هو من العوائق حقا لاندفاع الشاعر ؟ فان ذلك هو ما أثاره البشير بن سلامة بأشد ما يكون العمـق ٠٠

فهل تحركت السواكن ؟٠٠ لعل وعسى !٠٠

---

(1) « الفكر » : اكتوبـر 1968 ٠
(2) « الفكر » : نوفمبـر 1968 ٠
(3) « الفكر » : جـانفى 1969 ٠
(4) « الفكر » : أفـريل 1969 ٠
(5) « الفكر » : جـويلية 1969 ٠

ع٠ ل٠

☆

أضواء الفكر

• في معـرض البكـري :

الـذي يحـرث فـي الشمـس ٠٠٠

لا بد أن نحس بالغبطة والتفاؤل للحركة الطيبة إلتى يمر بها الـرسم فى تونس ، فتباين الاتجاهات واختلاف الأجيال وتواصل المعارض تشير كلها إلى جهود محترمة يقوم بها هذا الصنف من الفنانين ٠ إن الأمل يخضـر فى هـذا الربيع مع الأرض حينما نشاهد هذا الحصاد الرائع من اللوحات ٠

لقد رأينا معرض البكرى منفردا ، بعدما تأملنـا فى أعمـاله المعـروضة مع مجموعة 70 ، وتأيد لدينا ما لهذا الرسام من شخصية واضحة المعـالم ٠ أقيم المعرض فى قاعة شارع ابن خلدون ، واكتسبت كافة اللوحات طابـع الغفـوة « فترة ما بين اليقظة والنوم » وهى موشحة باحساس رومنطيقى دافىء يتضح من اللون خاصة ومن التعبير الشكلى حيث تبقى الخطوط فى عالم غير مرئى ٠٠ أو غير قار ٠ إن البكرى يكتب أيضا الشعر ، وقد ضمت عـدة لوحـات بعض القصائد باللغة الفرنسية ، يجب أن نلاحظ أنها دون مستوى الرسم بكثير ، نظرا لطابعها الانشائى المدرسى ، واعتمادهـا أسـاسا على الصـور القـديمة المستعملة ٠ لكن الجميل حقا هو وضع هذه القصائد داخل أطـر اللوحـات ، وزخرفتها بشكل جميل على يد قائلها ، ممـا ينقلنـا لمنـاخ فنى ننسى ضمنه الاشياء اليومية (لأن المطلق أحيانا رغم مثاليته وبعده عن الواقـع ضـرورى للانسان ، وهو عنصر من عناصر حياتنا) ٠

إذن فأعمال البكرى هنا تتحد فى نظرتها للمطلق ٠٠٠ بل فى توقها نحـو المطلق ٠٠ فالألوان مبتكرة مبتدعة ، ليس فيها مساس واضح مجانى بالاشياء العادية ، تنطلق الألوان من الواقع ربما ٠٠ إنما تمعن فى الخيال ٠٠ فهى ألوان خرافة ٠٠ وألوان حلم ٠ هنا ينجح البكرى نجاحا طيبا فى خلـق عـالم خاص به ٠٠٠ غير مسيج لأنه متفتح على التيارات ، يأخذ من كبار الرسامين دون ذوبان روحه فيهم ، ينقل لنا تجربته ببساطة ويسر كما يكلمنا بالكلمة الموحية والاشارة المفهومة ٠

من الواجب أيضا أن نرفع للبكرى تقديرنا للأصالة التى تسود عالمه الفنى، فتونس موجودة فى أعماله ، هناك فى بحثه عن التعبير بما يضارع الفسيفساء ، إذ أن ذلك نابع من تاريخنا قبل الاسلام ، وهنا فى الاحساس بالفاجعة وعسر النمو مما يعمق نظرة الفنان للحياة ، لا بالتشاؤم السلبى القاتم ، بل بنفى السطحية واجتناب الزخرف المريح • تونس واضحة المعالم فى رسوم البكرى ، وقلما نجد بلادنا فى فن مواطنينا • وإننا لنلمس اعتزاز الفنان بتونسته ، ففى لوحتى « أغنية المالوف رقم 14 » و « آثار رقم 17 » نلاحظ انفراد الروح القومية ، دون انغلاق أو تحجر ، بل عن وعى وإدراك واحتضان للعالم •

وقد لفت نظرنا عمل فنى لا يعتمد اللوحة ولا النحت ولا أى شكل متعارف ، وهو « الشهيد » وهى مجموعة من الأسلاك الشائكة وتعبير بلون الدم القانى ، يجعلك تقترب بضراوة من عالم التضحية والألم والكمال ••• فهذا العمل « اذ هو ليس بلوحة ولا بنحت » ملىء بالعنف ومشيد على إحساس صادق بنبل القضية ••• قضية الحرية لدى كل شعوب الأرض • كما لفتت نظرنا من ناحية أخرى لوحتان رقم 26 ورقم 27 وتنقلان لنا معنى من المعانى الانسانية •• وهو الشيخوخة ، فالشعور بالهرم يجتاحك عندما تشاهد هذين الرسمين لمبان قديمة وشوارع ترمى بالقدم والحزن •• فكأنك أمام أنقاض إنسان يحتضر ••• اللون الباهت الباكى يتضافر مع الشكل الحزين لخلق الاحساس بهذه الشيخوخة وتقديمها فاجعة كالموت ••• ورغم هذا فالبكرى شاب فى عز الشباب ، ينظر بتفاؤل لفنه ولعل فى كلماته الشعرية التى ننهى بها هذا التعليق المقتضب ما يوضح موقفه من الحياة •• كنا رجونا أن تقدمه الرسوم لون استعانة بالحرف •• يقول البكرى :

أنا أشيد وطنى

أنا أحرث فى الشمس

أنا أعجن الضوء

وأغذى الأمل

أنا أنحت النصر

احمد القديدى

• في معرض الناصر وسيزان القليبي :

التعبيــر عــن العنـف بالألــوان

« الفن هو أن نقول لا » هكذا قال أحد النقاد ٠٠ وفي ذلك جانب كبير من الحقيقة ، فالفن ينشأ ـ اذا كان أصيلا ـ من وعي وعدم رضى ٠٠٠ لا عدم رضى نابع من نفسية مريضة بائسة ترفض رفضا قاطعا كل عنـاصر الوجـود وكل معطيات الانسان ، بل عدم رضى يولد من احساس بالواقع وعزم على المساهمة في تغييره ٠٠ فالرفض هو أن لا نقول لا فقط ، بل أن نقول نعـم للأفضـل والأصدق والأقوم ، أن نتحرك لانجاز ما هو أفضل وأصدق وأقوم ٠ لعل هذه المعاني تتجلى في معرض الناصر وسيـزان القليبي ٠ قيـل عن النـاصر أنه « الفنان الذي يقول لا » ولوحاته تؤيد هذا الزعم ٠٠ فهي لا تتقيد بأية قاعدة متعارفة للرسم التقليدي٠٠٠ يحس المشاهد أنها ـ رغم ضيق مساحة أبعادها ـ تتوق نحو التحرر الشامل ٠ فهي تعجز أحيانا عن الانعتـاق الكامل إذ تبقى سجينة ثقافة الناصر القليبي وتأثره ٠

يقول حاتم المكي عن الناصر : « إن الأشكال التي يعجنها هذا الرسام تبدو دائما قوية وموضوعة في إطار هذه القتامة المضاءة التي توحي بكهوف النفس ، حيث تتجابه وتحتدم ما سماه العالم النفسي يونغ بـ « الطاقات الكامنة » ٠

هكذا نفهم عالم الناصر الذي لم يرسم لنا قط المرئيات الخارجية للحياة ، بل تغلغل بنا في مناخ نفسي مغاير للمحسوسات وموح بها ٠٠ وهـذا مـا يجعل الناصر أصيلا ، فأغلب الرسامين التجريديين ينطلقون من البحث الجمالي لاقرار هرمونية وموسيقى لوحاتهم ، ثم يصلونهـا شيئـا فشيئـا بخلجـات النفس ٠٠٠ أما الناصر فأغلب الظن أنه ينطلق من حلمه الباطني كما يتراءى لذهنه فيرسم الاشكال بغرابة وفن ٠٠٠ ثم يضفي الألوان لخلق التطابق ٠٠٠ ونراه ينجح كثيرا في إبلاغ تجربته الروحية٠٠٠ **فرسمه ذهني قبل كل شيء٠**

قال الناصر عن أعماله : « إنني أرسم بعنف ٠٠٠ الرسم لدى هو تعبير عن العنف ٠٠٠ » ذلك ما هو رائع حقا ٠٠٠ فالعنف هو الخيط الرفيع الذي يصل اللوحة باللوحة ، يشد اللون الى اللون ٠٠ ويعطيك احساسا جبارا بالعمق٠٠٠ فالعنف كرد فعل انساني هو النسغ الاول للانسان ٠٠٠ عبـر بـه المجـاهد والشاعر والرسام وهم يبحثون عن الحق والخير والجمال في العالم ٠ العنف هو تلقائية الفن ودرجة قصوى من درجات نقائه وصفـائه ويسـره ٠ وهو أيضا ظاهرة سياسية وسوسيولوجية من ظواهر حضارتنا المعاصرة ٠٠ فلماذا لا يستغلها الفن من أجل بقائه ومعاصرته ٠ نلاحظ أن أجمل اللوحات وأكثرها جمعا واستخلاصا للعناصر التي ذكرناها هي اللوحة رقم 21 بعنوان « الثيران » وتبدو الحركة فيها أهم من الشكل٠٠٠فهذه الحيوانات تظهر في تطاحن مستميت

من أجل شيء ما مع استعمال اللون الابيض المثير يتخلل مساحة من الالوان السوداء والزرقاء والبنية لابراز القرون ... كسلاح ضد المجهول . هنا يتجلى التعبير بالعنف فى أروع ديباجة ويبدو أكثر فأكثر توق الناصر القليبى الى فضح النفس البشرية وتجريدها من زيف السلوك اليومى . ويجتمع العنف بالجنس فى لوحات عديدة .. إذ يكتسى العراء الأنثوى لا طابع الاغراء ولا طابع الشهوة ... بل طابع فرض الذات ... فهو – أى العراء – سلاح لفرض النفس ... وهو إشارة لحب البقاء وتنازع الحياة ...

أما سيزان القليبى ... فهى تميل الى نقل الأشياء الفولكلورية ... لوحاتها لا تخلو من ملاحظة دقيقة وعين خاطفة إنما تبقى كلها بطاقات بريد للتعريف بتراث تونس ومعالم شخصيتها ..

نرجو أن يتحرر الناصر بما يملكه من قدرة وثقافة من بوتقة التحليل النفسى ... لاقرار موقفه من العالم .. من أجل مزيد من الايجابية ... ومزيد من الشمول .

أحمد القديدى

• كتاب جديد عن سارتر :

هما أستاذان أولهما بنيويورك والثانى بلوزان بسويسرا « ريبالكا » « كونتا » اشتركا فى كتابة عمل عن سارتر .. حياته .. جهاده .. وفلسفته مع تعليق ضاف عن أعماله .. » .. إن سارتر نشأ كاتبا مفكرا كما يؤكد هو نفسه .. الكتابة هى سبب وجوده (راجع قصة حياته بعنوان « الكلمات ») ودعم فلسفته بعدد من الروايات والمسرحيات . وحاول النضال السياسى فى مواقفه من قضايا الجزائر مثلا والفيتنام وأمريكا اللاتينية . لقد قرأ سارتر هذا الكتاب الشامل (788 صفحة) وكتب رسالة الى مؤلفيه قال فيها : « ها أنا أعود الى نفسى .. فكأنى أصادف رجلا غريبا عنى .. فأجد صعوبة فى التعرف عليه .. »

• ضجة حول « تاميم » بيكاسو :

تؤمم عادة المؤسسات الاقتصادية أو الوقائع التاريخية .. أما أن يؤمم علم من الاعلام وهو على قيد الحياة .. فشيء جديد خاص بهذا العصر .. هكذا تحاول كل من فرنسا واسبانيا احتكار حياة وأعمال الرسام الشهير بابلو بيكاسو .. فمنذ أن أقيم معرض ضخم ببرشلونة لبيكاسو ، وفكرت الحكومة الفرنسية فى إقامة متحف له ، شرع المثقفون يتساءلون عن انتماء هذا الرجل الأسطورة ... صاحب لوحة « غرنيكا » العظيمة . أما هو .. ففى زحمة المناقصات والمطالبات ، يبدو رجلا عاديا جدا ويحتفظ بمواقفه تجاه أهم القضايا ببساطة وتواضع .. جديرين بانسان ناضل وأحب وأغدق على البشرية أصدق ما لديه : إيمانه بالقيم الخالدة .